الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٢٤٥٥

العدد ٣٨ — ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ — ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
٧٣٨	مصرع نوار كوتو القديس الفاسق	بقلم ايزيدور كورليانوف	للأستاذ محمد لطفى جمعة .. ..
٧٤٩	جبل النار	قصة من تاريخنا الذى يكتب الآن .	بقلم الأستاذ على الطنطاوى .. ...
٧٥٧	تجربة قاسية	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
٧٦١	حكمة الموت	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٧٦٧	كرم	للشاعر القصصى بول بورجيه	بقلم الأديب كمال الحريرى ... ...
٧٧٢	الأول والأخير	للكاتب جون جالزورثى	بقلم الأديب سامى الناقس ... ...

مصرع نوار كوتو القديس الفاسق

بقلم إيزيدور كوليانوف
للأستاذ محمد لطفي جمعه

منذ الشهر العاشر من عام ١٥٧٥ تربع فيدور الثالث على عرش جولد نفاجوس عاصمة ديز ڤيدانيا ، فى قصر منيف واسع الأرجاء ، تحيط به أبراج وحصون عالية الذرى ، وتلتف حوله بساتين ناضرة وحدائق غناء ، ورياض خضراء ، وغابات ملتفة الأشجار شاهقة الأغصان كأنها قطعة من جنات عدن . وكان البلاط الملكى فى أقصى درجات الرفاهية ، تحف به مظاهر الهيبة وتتمشى فيه تقاليد موروثة منذ مئات السنين ، وتخضع لنفوذه ألوف الرجال وتخر أمامه مئات الرؤوس من القواد والساسة والعلماء والدهاة والوزراء والمتزلفين . وإذا بقدم جاهل من طبقة الفلاحين السذج البسطاء خارج من أعماق « تسار كوسيلو فلاخش » إحدى مقاطعات ديز ڤيدانيا ، وأقفر نواحيها ، وأبعدها عن الحضارة والغنى ، واسمه نوار كوتو ، يظهر بمظهر الرهبان ويتشح بمسوح الصالحين الزاهدين ، فيقبض بيده اليمنى على عكاز متين ، وبيسراه على قلب كلارپوتانا زوجة فيدور الثالث وشريكته فى الملك وقسيمته على العرش والصولجان ، فيمد نفوذه من قلب الأميرة المتوجة كلارپوتانا إلى البلاط الملكى فيصير له الأمر والنهي والقبض والبسط ، وبيده الحركة والسكون وبين أنامله الحل والعقد ، وتخضع له ديز اڤيدانيا من أقصاها إلى أقصاها ، وتنفذ كلمته قبل كلمة فيدور الثالث نفسه ملك ديز اڤيدانيا وصاحبها وسيدها . ويذيع فى الدولة خبر الراهب ، وينتشر مع اسمه فى المدن والقرى والدساكر والحقول والمصانع ، أن فى بلاط الملك زاهداً مقدساً وراهباً ورعاً ، ونقياً تقياً ، يأتى بالكرامات وتتم على يديه خوارق العادات ، وأنه مقبول الارادة عنده نافذ المشيئة باذنه ، وأنه مستجاب الدعوات ، فلا يطلب شيئاً إلا ويجاب إليه ، فما من نعمة

تعريف بالقصة

إيزيدور كوليانوف مؤلف روسى مقيم فى أمريكا ، وقد تنقل بين الولايات المتحدة والمكسيك وجواتيمالا . وقيل إنه نقل هذه القصة القصيرة العجيبة عن أسطورة مكسيكية قديمة جعلت حوادثها فى القرن السادس عشر وكان رايدر هاجارد القصاص الانجليزى الشهير قد وصف « قلب الدنيا » وعاصمة النحاس ومدينة الكنوز (وهى مدن مفترضة) عن أساطير أسبانية وأمريكية

أما هذه القصة فأهم ما تدور عليه حوادثها الأخلاق والسياسة وعواقب الاستبداد ، واستعباد النساء للشهوات . وقد أفرغ الحوادث فى قالب جذاب فاتن . أما العقدة وهى المؤامرة التى قضى بها على الراهب العاشق فمن أغرب ما تخيله فكر قصاص خصب ، وقد نشرت القصة بخريطة تبين معالم المدن وأهم ما فيها ولم نر فائدة مباشرة فى نشرها ، فنكتفى بذكر ماورد فيها من الأسماء تفادياً من رسمها رسماً قد لا يتقنه إلا خبير جغرافى . ديز ڤيدانيا : اسم المملكة وهى واقعة بين توكسمانيا وديڤيدانيا جولد نفاكوس عاصمتها على نهر شانطور وهي مدينة كبرى . طوكسين : جبل عال فى شمال الممالك الثلاث ولا يحول بينها . تسار كوسيلو فلاخش : مقاطعة الراهب التى ولد فيها وعاد إليها . هاشفات : قرية هى عاصمة المقاطعة وهى التى استقبل بها . شانطور : نهر كبير يخترق المملكة ويمر بالعاصمة والقرية . توكسمانيا وديڤيدانيا : جارتان معاديتان لديز ڤيدانيا

تنال أحداً من أهل النفوذ إلا وهو مريدها ومتمنيها وسائل الله والملك فيها . وما من نقمة تصيب أحداً منهم إلا وحبلها بيده ... وأنه من أجل هذه القوة الغامضة الخارقة قد أصبح الشيخ نوار كوتو الحاكم بأمره فى القصر وعلى قوائم العرش وفى ديوان الملك ثم فى أعناق الرعية . هو الذى يشفى المرضى بغير طب ولا دواء ، ويعالج الجراح دون مشرط أو سلاح ، وينقذ من الموت من شارفوا عليه ومدوا يدهم لمصافحة الأبدية ، فكأنهم عند سماع صوته ومقابلة نظرته قد بعثوا من مراقدهم . بل هو يحيي الموتى ويعيد إليهم وجودهم ، وأنه على كل شيء قدير ، وهو الذى يغنى ويفقر ويعيد المغضوب عليهم إلى حظيرة الرضى الملكى — سواء أرضى الملك أم لم يرض — وينقل المرضي عنهم والمقربين إلى مضيق السخط والغضب ، سواء أغضب الملك أم لم يغضب. ليس الملك فيدور والملكة كلاوتانا والوزراء والقواد سوى أدوات صماء فى أيدى الراهب الزاهد والكاهن القانع نوار كوتو الذى كان يعيش عيشة التقشف فى بيت وضيع فى أحد أحياء المدينة الآهلة بالفقراء . ولما كان أهل ديزفيدانيا محبين للاطلاع وقد أتقنوا صناعة التجسس لأن جيرانهم الدرافيديين شرقاً والتكسومانيين غرباً يطمعون فى بلادهم ، فقد حذقوا التقاف الأخبار والتقاطها من أفواه المتكلمين للوقوف على الحقيقة التى قد تفيدهم فى الدفاع عن أوطانهم ، فقد سرت تلك السليقة من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة، ومن التجسس على العدو الخارجى إلى التجسس على العدو الداخلى . فأخذوا يروون عن الراهب الرهيب أخباراً يحمر لها الوجه خجلا ويقطر العرق من جبين راويها وسامعها حياء ، لا ينجو من ذلك النبلاء والأشراف وزوجاتهم ولا رجال الدين وسدنة المعابد فى ديزفيدانيا طولا وعرضاً وشمالا وجنوباً . فنسج دعاة السوء وذوو الألسنة اللاذعة خيوطاً من الأوهام والأخيلة والقصص وزعموا أنه على الرغم من تقواه الظاهرة، قد غرس بذور الاباحة فى مزرعة الأخلاق الطاهرة واتخذ من مظاهر الدين وسيلة للتعدى على الفضيلة ، وأنه سخر من بساطة أهل الاستقامة ورماهم بالحماقة والبله . فلم يقف فى طريقه حاجب، ولم يحل دون اندفاعه فى رغباته وتيار أهوائه حائل . بل إنه لا يسمى ذلك عبثاً ولا لعباً بالفضيلة ولا تعدياً على الأعراض ، إنما هى الطبيعة التى يخضع لها ويلبى نداءها ويصغى إلى صوتها ويطيع أمرها فى كل وقت من أوقات النهار أو الليل . فهو لا يقترف جرماً متعمداً ، ولا يخالف مكارم الأخلاق قاصداً ، ولكنه يسمع النداء من قريب ومن بعيد . فما لديه اكتراث لعفة العذراء ، ولا لكرامة الزوج ، ولا لرابطة النسب. حقه وهو « الرجل » مقدم على حق الزوج إذا أراد هو ووافقته الزوجة . الشرائع والقوانين والعقود . . وسائل مادية بمثابة الأوراق التى تعلق فى أعناق السلع لتدل على أثمانها أو البطاقات التى تتدلى على جوانب الحقائب تنسبها إلى ذويها . ولكنها لا تمنع الرجل الماهر أن يحمل الحقيبة ويولى بها الأدبار

ليستمتع بما فيها من أدوات الزينة ... وهكذا النساء الأبكار والثيبات والمتزوجات والمعشوقات، كلهن فى نظره ملك يمينه وراقصات فى هيكل ملذاته الذى لا تغلق أبوابه . لقد كانت تلك المواهب والرذائل واضحة فى ذهنه ، وكان واعياً لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال . ولكن العامة ظنوه غامضاً . . وأين الغموض أيها الحمق ؟ إنه رجل متعبد ، قوي الارادة قوة نادرة ، سوبرمان إذا شئتم ؛ أتقن حكمة الدين وحكمة القلم وحكمة اللسان ، يصلى ويسحر ويريد وينال ما يريد غير مدافع ولا منازع ولا مقارع . أنتم تسمون بعض ذلك رذيلة وهو يسميه إشباعا واستمتاعاً . ترون فيه الشر والجانب الأسود ، وهو يرى فيه الخير والجانب الوردى . الله المحبة . والمحبة كل شيء ولا حدود لها . وهؤلاء المريدون من ساسة وقواد وأمراء وكواعب ناضجات وفتيات مخدوعات وظباء غريرة

* * *

في سفح جبل طوكسين فيلار ، وعلى ضفاف نهر شانطور يرى السائح فى مقاطعة تسار كوسيلو فلاخش قرية هاشقات پيدول ، وهى مربط أفراس ومستودع مركبات حوافل وملتقى قوافل ، وموطن تكنات للجند والجحافل ، ومركز دائرة الطرق والسبل من العاصمة إلى الداخل ، ومحط رحال التجار والمهاجرين والمسافرين من أهل التقوى وأهل الفجور . وقد نشأ نوار كوتو فى أحد بيوت تلك القرية المطلة على الحقول والمحتكة بالرائحين والغادين . فلما شب الفتى وترعرع ، هوت نفسه إلى الشعوذة والدروشة الكاذبة وهو يظن أنه مجذوب إلى لباب الدين ، فأخذ يغشى المعابد ، ويطيل الصلاة فى المحراب ويتحدث إلى كل من بدا له فى ثوب الصلاح ليفيد منه علماً . فكان الواردون يذكرون المعجزات وخوارق العادات وحياة الجن وتأثيرها فى الانسان وقوة الخير والشر وسيادتهما فى كل زمان ومكان ، فجذبه هذا الخفاء فى حياة البشر واستدرجه السر والسحر ، وتغلب على خلقه الميل إلى التحكم فى حياة الناس بتأثير العقل فيمن لاعقل لهم

وكان أهل ديزفيدانيا قاطبة من الجهلاء والفلاحين المشغولين بالزرع والقوت والتناسل ، فكان لقوة الخيال ونفوذ الأوهام فيهم المكان الأول ، وكانوا مظلومين ومرهقين ... كان فيدور الثالث ملكا على جانب عظيم من البلاهة ، كانت وراثته ملوثة بالأمراض التى تصيب الجسم والعقل . وكانت ملكته وعقيلته كلاريوتانا متحكمة فيه لانحدارها من سلالة ملكية أرقى من سلالته وأسمى . وكانت ذات جمال رائع وشخصية شبقة وإرادة ملتهمة وشهوة ملتهبة . فوضعت فى عنق زوجها أغلالاً . فما كان ظلم الرعية يهمها أو يهم بعلها ، وهذه الرعية الجاهلة الفقيرة بجهلها أكثر من فقرها لجدب أرضها . إن جدب العقول أقرب إلى الفاقة من إجداب الأرض وعقمها

فما كانت كلاريوتانا تبالي أظلم الشعب أم لم يظلم ؛ وقد اخترع الكهنة للرعية فكرة الملكوت الأعلى

حتى إن من لم ينل نصيبه في هذه الكرة الأرضية ، لن يفوته نصيبه فى كرة أخرى ، ولكنها علوية . فكانت الرعية أقرب إلى التصديق والاعتقاد والايمان بالأوهام . هذه المعابد قد انقلبت مسارح ومراقص، وتلك الهياكل صارت أماكن للتعذيب والتنكيل ، فان الكهنة قد فرضوا على الشعب فريضة الايذاء والجلد والجوع وتعذيب الأبدان لراحة الأرواح وتنقية النفوس وتطهير القلوب . مزيج من الوثنية الهندية والبيوريتانية الأيقوسية والكويكرزم . لقد سرت الشهوات فى الأبدان وسارت سيراً عكسياً . كانت الدواعر تجلد الشيوخ فى المخادع ليحركن من همتهم الفاترة؛ وكان الكهنة يجلدون العذارى والكواعب ليطهروا من قلوبهن وينفروا من ذنوبهن . ومن هذا الجلد والتعذيب وشحذ السياط ، إلى مذهب إشباع الحواس بعلة أن الله خلقها وسواها ، وألهمها فجورها وتقواها ، خطوة واحدة ! فلم يكن الشيخ الفاجر نوركوتو واضع هذا المذهب أو الداعى إليه، إنما كان أحد أتباعه فسار فى أثر تياره وقلد أشياعه ومريديه. وكان فقهاء هذا المذهب يلتمسون التعليل والتحليل، ويبحثون عن التزكية بطريق التضليل ... ولكن نوركوتو قد وضع المذهب موضع التنفيذ ، فان الله فى زعمه لم يخلق لنا أعيناً إلا لنرى بها ما يمتعها ويمتعنا ، فلا نجعلها تقع إلا على ما يسرنا ، ويملأنا نشوة وفرحاً، وجعل لنا آذاناً لنسمع بها أحلى الأصوات وأجل الأنغام ، فوجب علينا أن نفر بها حتما من أنكر الأصوات وأرذلها ، وأبعدها عن الانسجام والهارمونية .. وما دمنا فى هذه الحياة الدنيا فلنستمتع بحواسنا ، بأبصارنا وأسماعنا وبقية جوارحنا ؛ والذنب كل الذنب فى حرمانها ، والأجر كل الأجر فى تمكينها . أما تعذيب البدن فهو وسيلة التطهر الذى لا يكون إلا لمن يشعر بأنه مذنب . أما الطاهر فلا يتنجس مطلقاً . وها هو الزاهد نوركوتو قد صار إمام المذهب وشيخ الطريقة وتجلت قدرة الخالق عليه فبدت له تصاوير فى الأفق فى وحدة الليل ، وفى وضح النهار ... هذه تماثيل القديسين وأعين القديسات ترمقه وهن بضر بن الورد بالعناب، وبعطرن اللؤلؤ من النرجس ، وأصوات الملائكة تدعوه إلى الحضرة الملكوتية : وهذا هو الوحى بعينه وقوة الخيال وخصوبة الادراك الباطن، وها هو ذا يصير ولياً يد الله تدعوه ، وصوت الملائكة يحدوه ، ونور البصيرة يقوده، وعناية الأرواح العليا ترشده وتكلؤه. فما عليه إلا أن يلبى النداء ليرقى أسباب السماء ، وها هى ذى الأصوات تهمس فى أذنه وتأمره بالسياحة الكبرى التى لا وصول بغيرها . فليحمل المخلاة والكشكول، وليتشح المرقعة ذات الديول، وليتأبط وعاء القناعة الحافل بألوان الطعام من المائدة السماوية، وليقبض على العكاز الذي ينبت فى يده أفنانا وأغصانا، ويورق روحاً وريحاناً ، فلا قيظ الصيف ، ولا قر الشتاء، ولا وحوش الغاب، ولا أفاعى الغبراء، ولا الذئاب الجائعة ، ولا الثعابين اللاسعة ، لتخيفه بأنيابها وسمومها وإن يكن فراشه الغبراء وغطاؤه القبة الزرقاء ... نفس قوية لا ينفذ إليها من خلال

الجسم برد الجليد ولا وهج الشمس ، ولا تعتريها علة ولا يصرعها داء.. وهذه التكايا والأديرة ملجأ الهادىء الهانىء عندما تخور منه قوة البدن أو يحتاج إلى التجديد ، كما يشعر الأفعوان المقدس بالحاجة إلى تغيير جلده فيسلخ عنه القديم ليحظى بثوب مرقط جديد . ولكن هذا البدن كان يلح عليه أحياناً إلحاحاً شديداً ، ويغريه إغراء مزعجاً ، فلا يملك أن يحرمه، فان حرمه أحس بوخز الابرة ، فلا بد له من الخمر المسكر ، والنبيذ المخدر . . ليفيق، أى نعم ليفيق فهو فى نشوة دائمة ، لاتقاومها نفسه الهائمة . وبعد الافاقة أو السكر لا بد له من نعومة الأبدان المطرة ، ولمس أجسام الإناث ذات الطراوة والخصوبة الفاتنة ، والعبث بالأيدى الرخصة . فتلك الجسوم اللينة المتثنية التى يعالجها من مَسّ الجن لا بد أن تدفع له الثمن ، وما ثمن الشفاء إلا الاستمتاع ومشاركته فى اللذة الطارئة والقبلة العارضة . هذا هو الاتصال المقدس ، مظهر الحب الأعلى ، إفراغ الحقيقة فى قوالب الخيال ، فان لم تكن تلك التى تلتمس العلاج تجود بنفسها، فاليه من يلقاها فى الطريق عرضاً ، فى سواد الليل أو فى نور النهار. راعية أغنام، أو طاهية طعام، غنية، أو معدمة، طاهرة أو داعر، كلهن صالحات لبرء القديس من ألم الرغبة المحرقة. خمس سنوات، وسبع سموات ، وألف دير، ومئات النساء قضاها وطرقها وطاف بها وأظلته سقوفها وذاق حلاوتها وسرارتها، وعشرات المرشدين والرفاق والمؤمنين تلقى عليهم وتلقوا عليه . وفى جبل آثوس ديانا ، أشرقت عليه الحقيقة المطلقة حقيقة العالم المحكوم بالخير والشر ، ولكنها فى نظر الحاكم الأعلى شىء واحد ، لا فرق بينهما ، لأنه هو الذى أرادهما وخلقهما وألهمهما ، فهما حقيقتان مطلقتان فى نظر العبيد ، ونسبيتان فى نظر السيد الأعظم — فلا خير بلا شر ، ولا شر بلا خير ، كما أنه لا ليل بلا نهار ولا نهار بلا ليل ، ولا نور بغير ظلام ، ولا ظلام بغير نور، ولا نار بغير رماد ، ولا رماد بغير نار ... هذه هى الحقيقة التى توهم أنها أوحيت إليه ، وعليه أن ينشرها ويبشر بها ويباشرها. إن الله معه، حاضر يراه ويسمعه ، يجيبه إذا سلى ، ويحقق آماله إذا اتجه إليه . أليس عبده المطيع ومخلوقه الخاضع ؟ وها هوذا قد خرج من الخلوة ، ونفض ثياب التحنث فى الكهوف وصدر إليه الأمر بالظهور ، فعاد إلى قريته (تشاركو سيلو فلاخش) فخرجت على بكرة أبيها تحييه وتستقبله وتحتفل به ، وهو ابنها البار الذى طاف العالم بأمر الله وتعلم وتلقن وتأهل واستعد. وكان رئيس الكهنة (كونيكتوفيلار) على رأس المواكب التى أخذت بيده وأحاطته بالكرامة والبر ، وقد وضع على رأسه أرصوصة [1] محلاة بالذهب والجوهر وقبض على عكاز الرياسة الدينية . فلما أقبل القديس احتضنه الرئيس وسلمه العكاز ، ووضع الأرصوصة ليرفعها على رأس الضيف الكريم وخلع رداءه الأزرق

(١) فى الأصل تيارا Tiare أى تاج مقدس يلبسه رؤساء الدين وهو مستدير منفوخ فاخترنا له « أرصوصة »

ليزين به منكبيه ، ولكن القديس ركع وصلى ، واستغفر واعتذر . فقال له رئيس الكهان المعظم « لم تعد هذه القرية بصالحة لاقامتك ، فلا بد من سفرك فوراً إلى جولدنفاجوس عاصمة ملكنا ، ومقر عرش مولانا فيدور الثالث ملك ديزفيدانيا ، فمكانك هناك بجوار العرش ، ومجلسك عن يمين الملك ؛ فهو أحوج ما يكون إلى قوة روحك ، وبركتك » قيل هذا القول بمسمع ومرأى من عجائز القرية وأبكارها شيبها وشبانها . وهذا أقصى ما يطمع فيه « رجل الدنيا » من مجد ... ليت عجائز قريتى يرينى ! هل كان الكاهن الأكبر مازحاً ما كراً ، أو صادقاً مخلصاً مؤمناً بما وصف به مواطنه ؟ هل أراد أن يهدى إلى الملك نصوحاً ومعيناً أم يتخلص من مزاحم خبيث لا تؤمن عاقبة أطماعه وطموحه ؟ ... ولما وصل نوار كوتو إلى العاصمة كانت الأمة خارجة منذ عهد قريب من حرب التوكسمانيين الطاحنة ، ولم توشك أن تنفض عن أكتافها غبار الهزيمة الفاضحة . وكان رأى البورچوازيين من أهل (جولد نفاجوس) على أشد حال من الاستياء والتذمر بعد الخسارة النكراء التى أصابتهم فى شرفهم وعزة أوطانهم . وكان النبلاء يشعرون بأن قوائم العرش قد تزعزعت ، وأركان السلطان المطلق قد تصدعت ؛ ولكنها لم تتقوض فتشبثوا بالبقية الباقية منها ، معتقدين أن فى استمساكهم بها منفعة لهم ولدراريهم ، فقد أمسوا أرقاء الشهوات والترف ، وسرى الفساد فى نفوسهم سريان السم فى الأبدان . فلم يجدوا علماً يرجعون إليه ، ولا عقلاً يلجأون إلى أحكامه ، ولا علماً يلتفون حوله ، ولكنهم يشعرون بالخطر ويشمون رائحة النهاية التى تدنو منهم شيئاً فشيئاً .. أويدنون منها . لقد أحسوا أنهم فى آخر نهار لتلك العظمة والمجد والدولة التى آن زوالها واندثارها . هذا الشعور بآخر النهار عندما يميل ميزان الشمس ، وتختفى الأشعة الأخيرة ، هذه القيامة توشك أن تقوم على دولتهم وتفاجئهم بالويل والثبور وعظائم المهلكات

فكان النبلاء والوزراء يلجأون إلى المنجمين والمشعوذين ، ويتبركون برجال الدين ويتحككون بجدران الهياكل ، ويتذرون النذور ، ويلتقفون البشريات من أفواه المخرفين والدجالين ، فالشر مرتقب والخير مغيب ، والشهوات متحكمة ، والملك فيدور الثالث مضمحل الارادة منحل القوى وهو أكثر رعباً من المستقبل الغامض ، ومن الحاضر المظلم من أضعف صانع أو عامل فى دولته . وكانت الملكة (كلارپوتانا) قد أصابها داء الهيستريا لحرمانها من ذكورة زوجها حرماناً مبكراً ، فانقطعت سلسلة نسلها ، وذوى عود شبابها ، وجف ماء حياتها ، ولم تكن نظم البلاط لتسمح لها بأن تتخذ من الجند أو الضباط عشيقاً مأجوراً مأموراً كما كانت تفعل جدتها كريستيانيا أو حماتها بيلادونا . فلما أن سمعت بالولى الجديد استدعته بحجة علاجها من أدوائها ماظهر منها ومابطن . فلما استأذن عليها بأمر رجلها الفاقد رجولته ، بهرها منظره واستولى عليها

الفزع والطرب فى آن ! فهاهوذا عملاق بين الرجال ضخم الوجه والأنف ، عريض الجبين والمنكبين ، واسع العينين والفم ، خشن الأكف والأقدام ، رث الهيئة ، ولكنه يبدو كالملوك فى عظمة فطرية لا يكسبها المجد الدنيوي ولا تخلعها مظاهر الثراء المادى .

إنها بلا ريب شخصية جذابة فاتنة ، تخضع لها الأنثى قبل أن تخضع الملكة . فخضعت الاثنتان معاً : الملكة الذليلة بحرمانها ، والأنثى المتعطشة بحاجة بدنها ... وسرعان ما وقعت المرأة المتعطشة صريعة لسلطان هذا المفلوك ، فقال : إنها مسكونة ومملوسة[1] وأن روحاً شريراً من الجن يحتل كل عضو من أعضاء بدنها ، ويسيطر على كل جارحة من جوارحها ، فلا بد من سيطرة أقوى من سيطرة الجن ... !

فقالت : وأين تكون السيطرة التى هى أقوى من سيطرة الجن يا أبتاه ؟

فضحك الزاهد ضحكة عريضة ساخرة . وقال : سيطرتى أنا !

فخرت أمامه وقبلت أطراف ثوبه البالية وقالت : صدقت يا أبتاه !

ومن تلك اللحظة سلمته قيادها — أعنى قياد بدنها وروحها — وصارت عابدته المخلصة وخادمته المطيعة المؤمنة ، وأعطته مفتاحاً ذهبياً يبيح له الدخول عليها فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فأبواب قصرها لا تغلق أمامه ، ومداخل مضجعها الملكى لا سر لها حياله ، ولا يعترضه معترض من الحراس ولا الوصيفات ... وكانت كلما خضعت لعلاجه خلعت رداء المرض شيئاً فشيئاً وعاودتها العافية تدريجاً ، فزالت صفرة وجهها ، وفارقتها الهيستريا التى كانت تعذبها وتنخر شبابها وتجفف ماء حياتها ... لقد كان سراً رهيباً ، لم يقو أحد على إذاعته ، ولم يملك أن يتفوه به ... وكان الملك فيدور الثالث لا يدرى ولكن الهمس حول رأسه أشبه بطنين الذباب

لقد تمت المعجزة وضحكت الملكة كلارپوتا ضحكا عالياً ، وزالت غضون جبينها وفارقتها السوداء[1] ورحلت عن مزاجها السوداء ، وزالت أعراض (الليتارجيا) النكراء ، واختفت علة الميلانكوليا التى أضعفت شهية الطعام ، وأنهكت قوة أعصابها ، وامتصت دماء أنوثتها ، وملأت رأسها بالأخيلة فى الصحو ، وبالأحلام المزعجة فى النوم

وكان الملك فيدور الثالث كلما تمشى البرء فى بدن خليلته دب السقم فى أحشائه ، فاصفر لونه ، ونحل بدنه وهزل كيانه ، وعراه خبال وذهول ، فكأن الذى أسبغ ثوب العافية على المرأة ، سلبها فى رفق وأناة من أوصال الرجل ، فازداد ضعفاً على ضعف ؛ فأهرعت الدولة نطس الأطباء من كل مكان وبذلت لهم كل ما فرضوا من مال ونوال ورتب وألقاب طامعة أن يصيب تشخيصهم وعلاجهم

(١) فى الأصل possedée أى مملوكة لقوة خفية

(١) السوداء melancholie . ويقال امرأة سوداوية المزاج hysteric

محجة الصواب ، فكانوا إذا أقبلوا على سريره ورأوا تحوله وتحول لونه ، وجسوا نبضه ، وسمعوا دقات قلبه ، وفحصوا دمه ، هزوا رؤوسهم يأساً وقالوا : « إننا لنفرغ أقصى الجهد ! »

فدخل عليه الزاهد الرهيب يوماً فى غفلة منهم ومسح جبينه بكفه وقال له : « إن شفيت تنذر لى يامولاى نذراً » . قال : « نعم يا أبتاه! فما هو ؟ » . قال : « ألا تعير أذنك لوشاية واشٍ ، ولا تصدق فى حق عذل عاذل »

قال الملك وهو يكاد يجود بأنفاسه : « لك ذلك يا أبتاه ! »

فركع الزاهد بجوار السرير ودفن وجهه فى لفائفه وأمعن فى صلاة حارة، ولما نهض من صلاته كان وجهه الأسمر الداكن وشعره الأسود الفاحم مبللين بالدموع ، وأخذ يعيد الكرة اليوم بعد اليوم ، وأخذت صحة الملك بعد قليل فى التحسن ، وعاودته القدرة على الطعام والقعود والوقوف — حتى المشى على الأقدام . . .

فشاع فى أنحاء المملكة المنكوبة أن صلاة (نوار كوتو) قد أنقذت الملك ، بعد أن أنقذت الملكة ، فاكفهرت وجوه الذين تحدثوا بالسوء من قبل ونسبوا شفاء الملكة الى علاج سفلى ، أو طريقة شهوانية وخطة شيطانية جعلت الحياة تدب فى جسم المرأة المحرومة ، التى كانت عليلة بالحرمان . وقال أنصار الراهب : هل كان بينه وبين الملك فيدور الثالث غرام واتصال كالذى زعمتم وجوده بينه وبين الملكة فى ظلام الليل وخفايا القصر ؟ . وأحيطت رأس الراهب بهالة من المجد و بُعدِ الصيت ، وهو بعد لم يغادر بيته الحقير فى أحياء الفقراء . ولكن النساء النبيلات ، وزوجات العظماء كن يتزاحمن على أقدامه ويقبلن إخمصه وكعبه ، ويتشبثن بركبتيه ، قبيل العلاج . وكان العلاج معلوما ، لابد منه ولاغنى عنه . . . لابد لكل امرأة أن تخضع ، وكن يخضعن مسرورات ، ألم تخضع أول سيدة فى البلاد ففازت بالصحة والحياة بعد اليأس من النجاة ؟ وعاد طنين الذباب رنينا فى آذان الملك ، فكان يستدرج الوشاة حتى يعترفوا له وينقلوا اليه كل مايشاع وعلاً الأسماع ، فيأمر بسجنهم وتجريدهم من أموالهم ، ويضيفها الى طيبيه وحبيبه وشافيه ومعافيه ومنجده ومنقذه ، ويقول لنفسه : الحسد والبغضاء والغيرة السوداء ، إن صح مايزعمون عن الملكة — وهو باطل وإفك وكذب منكر — فكيف يفسرون علاجى وشفائى ؟ هل كان يعشقنى أنا أيضا ؟ لقد أصاب إذ طلب إلى ألا أصدق الوشاة ، وهذه كرامة أخرى ! فقد تنبأ بخبث أهل البلاط فأحكم الحماية من شرهم بطلب النذر منى فأمنته ووفيت معه. كان نوار كوتو أخا أورجيات [1] ، لايرحم . ولم تكن أنثى واحدة بكافية ، بل إناث متعددات ، وليست قنينة واحدة بشافية، بل قنانى ودنان مختومات مغمات . وليست راقصة واحدة بقاضية أمنية

(١) أورجيا حفلة تهتك وإباحة كانت لليونان والرومان وبعض الشرقيين . وكتبها العرب هكذا .

النفس بل راقصات ومطربات . . ألم يعلم أن فى هيا كل الهند ومعابد المكسيك نساء عاريات اسمهن عرائس الآلهة المبذولات للكهنة ، وأحيانا لكل طارق وعابد . . . وهذه النسوة المغشيات حول كوخه ، المحاصرات لمسكنه من الفجر الى نصف الليل ، المرميات على أقدامه ، أليس فيهن صالحات لأداء تلك الوظيفة ، وهي عبادة « الاطمئنان » ؟ إن قوة الرجولة فيه نادرة المثال قادرة على إخضاع نصف نساء المملكة والقضاء على أوجاعهن المؤكدة . وقدرة الذكورة الكامنة وراء سوادعينه ، وسواد شعره ، وضخامة أعضائه كفيلة باخراج الجن من أبدان الكاهنات مهما كان الجنى الساكن عنيداً ، فثارت عواطف النبيلات المهجورات وغلت دماء الشباب فى عروق المرائس اللواتى كن زينة القصور وحلية المجتمع ، ولكنهن زوجات لأزواج لايزيدون على التحية والاحترام وتقبيل الأيدى فى المجالس والأبهاء ، أما هصر تلك القدود ، والتمتع بورد الخدود ، والمناجاة فى المضاجع فكانت خارجة عن نطاق جهودهم وشاهدة بعجز نحوتهم عن أجدادهم لأنهم أسرفوا في فتوتهم فلم يدخروا لرجولتهم ، وقد أشعلوا الشمعة حتى آخرها ، فلم يعد فى عودها شحم يغذيها أو تستمد منه أشعتها ولذا هجروا العقائل فى القصور ، كالمحظيات فى المعاقل ، فكان (نوار كوتو) كعبة آمالهن ومحراب عبادتهن حتى الراهبات فى الأديرة هجرن المذابح والمضاجع وحللن ببيت الزاهد يلتمسن الرحمة ! الرحمة يا أبتاه ولم يكن للرحمة التى جرى اسمها على ألسنتهن سوى معنى واحد

وفى أحد الأيام علم البيلكو [1] سومان أن زوجته (البلكايا تندريس) قد فرت من القصر ، فوجدت فى حال بين السكر والموت ، عارية البدن وموخوزة بأسنان مدية قاطعة فى زورق شراعى ضال فى عباب نهر شانطور الذى يمر بالعاصمة وقد اعتدى عليها بعد أن عذبت . ولكنها كانت فى كل الأحوال راضية . فنقل البيلكو حليلته إلى القصر والتجأ إلى الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) زعيم الخفية ورئيس الشرطة السرية ودفع له ألف فلورين ذهباً ووعده بمثلها إن هو أظهر له الجانى الذى استباح عرضه وهتك أستار شرفه ، وجمع بين الفجور والقسوة ... فاستوثق الكولونيل (أنفور ماتورى تشايف) من البيلكو سومان ألا يبادر إلى الانتقام ، وألا يبوح باسمه إذا سئل عنه في التحقيق ، فوعده بذلك فقال له : « إنه نوار كوتو الذى دأب على استغلال سيطرته على عاشقاته وأنه منح أجلهن لقب الأخت المختارة وكان يوعز إليهن أن يعصين أزواجهن ، فان الأزواج رجال ضرورة جمعت بينهم وبينهن دواعى المال أو الحسب ، أو الخوف من هيبة الدين والأهل ، وهذه كلها ترهات ! أما المحبوب القاهر فهو الزوج الصادق الحق والعاشق القابض على زمام الارادة عن طريق الجسم والعقل » وصمت (الكولونيل أنفورماتورى تشايف) ووضع سبابته على فمه علامة الأمر لمحدثه بالصمت

وقد أيقن البيلكوسومان أن نوار كوتو أصبح صاحب الحول والطول داخل القصر وخارجه وذا الكلمة التى لا تعصى ولا ترد ، وأن أذنى الملك فيدور الثالث مقفلتان دون كل وشاية ، لأنه مدين له بحياته وحياة زوجة الملكة ، فزاد ذلك من حقد البيلكو سومان الذى أهين شرفه ، وأهريقت

(١) لقب شرف مثل كونت ولورد ومؤنثه بيلكايا كما يقال كونت وكونتة

كرامته ، وديست عاطفة الزوجية منه بالأقدام ، ولكنه أضمر الانتقام وصمم على الثأر ، وكان طوال أيامه يعالج زوجته وينعشها ويطمئنها ويستدرجها لتعترف له، وهو يسجل اعترافها ويخفي وراء الأستار شهود سماع يسطرون أقوالها في ثبت رسمي فعرف الكثير من أسرار الرجل ، وأن امرأتين تبغضانه وتتربصان به الدوائر (ستارهزنا) رئيسة دير (باركان) وهي في أول أمرها نبيلة وقعت فريسة لشهوته وغدره ولم تنل من حبه مأربها ، إذ كانت تتمنى أن تستأثر به ، فهي قد وقفت أموال الدير ، وهي طائلة ، على الانتقام منه . ثم البارونة بيلادونا عقيلة الوزير (بيلهاين) وقد كان سبباً في إسقاط بعلها وإقصائه عن دست الوزارة ثم هجرها ، وما زالت تهوى في حلزون الشقاء والانحطاط حتى صارت تعرض التسري بها على من يشاء لقاء أجر معلوم ، ولكنها مع ما حل بها من الضياع وانهدار الحرمة لم تنس ثأرها . فحدثته نفسه أن انتصاره على خصمه قرين محالفة هاتين المرأتين، إذ لا أمل في الانتقام من رجل مهما علا أو هبط بغير معاونة النساء فانهن مخالب الشيطان ورأس الأفعى وأداة الشر . فسعى البيلكو سومان الزوج الموتور إليهما وعقد بينهما وبينه أواصر المودة وأفضى إليهما حتى أمنتا جانبه ، وكانتا تحسبانه في أول الأمر عيناً عليهما أو أذناً لنوار كوتو أو مولاته الملكة ، فأخذهما إلى قصره وأدخلهما على قرينته ، وأسمعهما من فمها قصة ألمها وعارها ، فأطلعتاه من أمر الكاهن الزائف على ما لم يعلمه أحد ، فعلم أن السر في شفاء الملك المخدوع أن الراهب إذ كان يتظاهر بعلاج الملكة ، كانت تدس لزوجها السم بأمره ، جرعات معلومة مقدرة ، من زعاف نباتي لا يترك في الأحشاء أثراً ، ولا يقتل فريسته للوهلة الأولى ، فلما أراد صنع الكرامة كفت الزوجة بأمره عن تسميم زوجها ، فعاودته الصحة ... ولكن الحادثة إذا صيغت للملك في أبلغ قالب وأزهى سورة وأصدق رواية لا يصدق قائلها ولا يؤمن به ، بل يرميه بكل سوء ، ولا يعفيه من عقاب . وكان لنوار كوتو خادم مخلص اسمه (يانكو) ومريد وفي يدعى ليبوس ، فاستدرجهما البيلكو سومان بالمال والنساء تنفيذاً لخطة وضعتها رئيسة الدير الموتورة التي كانت معشوقة الراهب ، وبذل لهما البيلكو النضار وقدمت لهما ربة الدير ما شاءا من راهبات وسقتهما ماروى غلتهما من خمر ، حتى أفضيا لها بأن الراهب سوف يكون منفرداً في بيت خلوي وفاء لموعد غرام جديد، وسوف توافيه إحدى النبيلات المشتعلات بالشوق إلى قربه لتحقيق أحلام الهوى التي يحلم بها نساء كثيرات من طبقتها بعد أن أقض هجر الرجال مضاجعهن ؛ وأن هذه النبيلة تخشى مفاجأة زوجها أو أحد أقاربها فتسلحت بالرصاص والسم وأسباب أخرى للهلاك ، قد توردها موارد التلف إن تنسمت ريح الفضيحة ، وأن هذه الحسناء الخجول الحذرة وتدعى (كوتشتا) لا تلبث أن تصل إلى الدار لتجوس خلالها وتعرف مخابئها ، حتى إذا بلغتها يوم اللقاء كانت آمنة مواطن الفزع من رقبائها . وأن اليقين قاطع بوهمها وأنها فريسة لمخاوف مزعومة . وإذن ما أسهل أن يكمن واحد أو اثنان من عداة الكاهن... ثم استمرت الكاهنة الموتورة في وضع خطة محكمة جعلت مصرع الكاهن الملتهب من فعل عشيقته الملتهبة أمراً ميسوراً

وفي اليوم المحدد لزيارة النبيلة زيارة كشف واستطلاع ، انفلت إلى الدار ثلاثة من النبلاء الموتورين في أعراضهم وقد تأبطوا حقيبة ضخمة

أودعوها قوتاً وأسلحة وحوائج أخرى ، فلما فتح الباب ودخلت البارونة (كوتشتا) صبروا حتى غاب سوادها فى ظلال الأشجار الوارفة وانسلوا بحذق كأنهم ينفذون مكيدة حرب فى مواقع الدرافيديين أو التوكسمانيين جيرانهم وأعدائهم من قديم الزمان ولم توشك المسكينة أن خرجت ، وقد اطمأنت وهى لا تدرى ما تخبئه لها الأقدار والأحقاد . ولم يطل على القابعين الانتظار فقد وافى فى اليوم التالى الراهب متزيناً فى زى أعيان الريف وجاء بعده أحد الخادمين يحمل ما يحتاج إليه مجلس الشراب ومخدع الهوى ثم انصرف الخادم وبقى الراهب فى الانتظار . وبعد الغروب جاءت النبيلة فى ثوب ريفية شمطاء مبالغة فى التخفى وغلقت الأبواب ، وجلست إلى الراهب فى استعداد لقطف أحلى ثمار الهوى ، وهى تمنى نفسها بتلقى صدمة الغرام العنيف[1] ، تلك الصدمة الأولى التى تشفيها من كل داء

ولم يوشكا أن يشرفا من نافذة النشوة على بستان الحب الفسيح ، حتى سمعا دقاً على ثلاثة أبواب فى وقت واحد ، وقبل أن يسترد العاشقان المأخوذان روعتهما ، دخل ثلاثة من أقارب النبيلة : زوجها وأخواها ... فجن جنونها ونهضت وأخرجت سلاحها فوقف الراهب بينها وبين أهلها فأطلقت الرصاص عليه فى لحظة جنون وفزع ثم أدنت من فمها خاتماً أنيقاً كانت جعلت فصه مخزناً لسم قاتل ، فلم توشك أن مصته بشفتيها حتى سقطت صريعة ... وانكفأ الراهب عليها ينعشها بطريقته غير حافل بمحضر الرجال الثلاثة ، فى سبيل إنقاذ معشوقته التى كاد يذهب ضحيتها كما ذهبت ضحيته . وكانت مواطن الرصاص من جسمه تسيل دما ، ولكنه كان يقاوم عوامل الموت بدوافع حيويته ؛ ويزأر حينا كالضبع الجريح وطورا يغمغم غمغمة مبهمة فأهوى عليه الثلاثة الدخلاء بخناجرهم وهو يجأر ويخور كالثور الكبير والفحل النابغ وينهض ثم يقع متخبطا فى دمه ، حتى نزف معظم مافى عروقه وكان دماً أسود قاتماً كدم الجن . فلما أيقن الثلاثة بموته رفعوا لحاهم المستعارة ، ونزعوا ثيابهم التى جعلتهم فى صورة أقارب النبيلة حتى توهمت أنها قد فضحت حقا وأن أباها وأخويها وقفوا على سيرها فأقدمت على القتل والانتحار فى حين أن خصوم الكاهن لم يزيدوا على أن قلدوا تصاوير أقاربها ، وانتحلوها ليحلوا محلهم لحظة تفقد فيها النبيلة رشدها بالرعب ، فتنتحر أوتقتل الراهب المزيف خطأ . وقد نفذت تلك الخطة المحكمة كما رسمها رئيسة الدير .

فلما تم لهم ما أرادوا غادروا المكان وتخلوا عن الحقيبة وأذاعوا فى العاصمة نبأ مصرع شيطان الانس حتى علمت به الملكة والملك . فانتحرت (كلاريوتانا) وجن فيدور الثالث وثار الشعب على النبلاء الكهنوت ووضع الفلاحون والصناع أيديهم الطامعة على كنوز ديزفيدانيا فانتهز الدريفاديون والتوكسمانيون فرصة خلو العرش واضطراب الأمن وزوال العدل فاحتلوا أرض الوطن ... وأقاموا لنوار كوتو تمثالا وللنبيلة كوتشاتو نصبا من المرمر لأن فسوق الأول وخشية الثانية من العار كانا سببا فى امتلاك وطن ديزفيدانيا وزوال دولتهم .

محمد لطفى جمعة

(١) فى الأصل premier "shock" d'amour لم ندر المقصود بها ولا سيما وإن إحدى الكلمات انجليزية

جبل النار

قصة من تاريخنا القديم يكتبها الآن
بقلم الأستاذ علي الطنطاوي

... لما سمع الساعة تطن انتبه لها ، فلما أيقن أنها (الثانية) وثب من الفراش ، ومشى إلى الشرفة فأطل منها ، فمس وجهه نسيم السحر الناعش ، فجعل ينشق منه ويعب عبًّا ويملأ رئتيه ، حتى إذا روى منه نظر إلى المدينة فرآها نائمة ، لا يسمع فى رحابها صوت ، ولا يلمح خلالها نور ، فاطمأن إلى هذا السكون ، وأدنى منه كرسياً فجلس عليه متلفعاً بعباءته ... وجعل يحدّق فى الطريق كأنه يرقب طارقاً يطرقه ، حتى طال عليه الانتظار ، وخيّل إليه أن الفجر قد سدت عليه المسالك أو حيل بينه وبين الطلوع ، ورأى الليل ثقيلاً ، فأحس كأنه منيخ عليه بثقله ؛ وزاده ضيقاً أنه جالس فى الظلام لا يستطيع أن يوقد السراج لئلا يوقظ أهله فيفسدوا عليه الأمر الذى انتواه واعتزمه ، وهجر لأجله فراشه وجلس فى شرفته يرقب رفيقه الذى يسعده على تنفيذه ، ولم يكن (فى الواقع) نائماً ، ولم يخالط النوم هذه الليلة جفنيه ، وإنما اضطجع ساعة من أول الليل يوهم أهله أنه نائم ، فلما اطمأن إلى أنهم هجعوا نهض فأعد ثيابه ، وهيأ عدته ، ثم استلقى على الفراش يحلم بالحياة التى يقدم عليها ، ويفكر فيها حتى لقد أصابه من السهر والفكر صداع أليم لم يكن له بمثله عهد . وكان (عرفان) أصغر أبناء أبيه الغنى المترف ، وأدناهم إلى قلبه ، وكان لأمه عطف عليه ليس لأحد من إخوته الكبار مثله . فكان الصبى المدلل المحبوب ، الذى إذا سأل أُعطى ، وإذا أمر أطيع ، وإذا أبى شيئاً لم يكن ، وإذا أراد شيئاً كان ، وإذا اشتكى اضطربت الدار ، وأسرع الأقرباء ، ودعى الأطباء ... وكان عرفان (على هذا) ذكياً مهذباً ، متقدماً فى مدرسته ، مجلياً بين أقرانه ، فتاناً بأدبه وخُلقه ، كفتنته بجماله وخَلقه ، فهو فى الرابعة عشرة ولكن جسمه الأبيض القوى جسم فتى أناف على السابعة عشرة ، له عينان حوراوان ، وأنف دقيق صغير ، وفم كأنه زر ورد أحمر ، ولكن عطره بليغ الكلم ، وشريف القول . وكان ديّناً صيّناً نشأ على طاعة الله ، وأقام الصلاة وآتى الصدقة ، وما تعمد منكراً من الفعل ، ولا زوراً من القول ، فكان عرفان بهذه المزايا زهرة اللدات ، وزينة الفتيان ...

أما الفتى الذى ينتظره عرفان ، فهو رفيقه مختار ، وهو فروى فى السابعة عشرة من عمره ، أسمر شديد السمرة ولكنه جميل الصورة ، دقيق الملامح جذاب ، وكان شجاعاً صاحب دين وشرف عرفه عرفان فى المدرسة طالباً ممتازاً ، فلم يلبث أن جعله رفيقه وصفيه ، وخليله المصطفى ، وصديقه المختار

* * *

لبث منتظراً على الشرفة حتى بدت طلائع الفجر فأدركه اليأس ، وخامر نفسه ألم الخيبة ، فأزمع أن يمضى وحده ، وألقى على الطريق نظرة الآيس فاذا هو بمختار ، مختار بعينه ... فكاد يطير

من الفرح، وأشار إليه أن ينتظر وحمل عدّته ومشى على رؤوس أصابعه ، يبتدر الباب ، فلما مر بإخوته وهم نيام أدركته العاطفة فخاف أن يغلب عليه حبه لهم وتعلقه بأبويه ، فحبس العاطفة فى أعماق نفسه واستودعهم الله . . . إلى . . . إلى غير ما رجعة ، فما يعلم أحد إلا الله ماذا يكون نصيبه من هذا السفر. ومضى هو ورفيقه يجتازان أزقة البلدة حذرين يترقبان لا ينبسان بكلمة، حتى إذا صارا إلى الفضاء وأمنا بعض الأمن ، افتتح مختار باب الكلام فقال لعرفان :

— ماذا تظن أباك فاعلا إذا هو تيقظ فلم يجدك فى الدار ؟

فلم يجب عرفان وإنما كان يصغى إلى صوت المؤذن يمشى فى سكون الليل مشي الغناء فى الأعضاء فتترنح منه الأشجار طرباً ، ويؤخذ به الكون مفتوناً . . . ويردد ما يقول المؤذن بصوت خافت ولكنه مملوء بالإيمان والثقة بالله : حيّ على الصلاة ! حيّ على الفلاح ! الله أكبر ! الله أكبر ! فأصغى إليه مختار وجعل يردّد الحيعلة والتكبير . . . فلما انتهى الأذان وشمل الكون السكون كرة أخرى مالا إلى رحبة قريبة فوقفا يصليان وكانا (كما وصفت) شابين دينين تقيين فنسيا حين صليا الدنيا بما فيها. ولما انفتلا من الصلاة سارا صامتين يذكران الله سراً ، وكأن هذا الشعور السامي الذى ملكهما ، وهذه المراقبة التى أقبل عليها قلباهما قد أحالتهما من طالبين صغيرين إلى مسلمين من المسلمين الأولين الذين عرفوا الله ، وأدركوا غاية الحياة فصاروا سعداء إن عاشوا لأنهم يعيشون لهذه الغاية، وسعداء إن ماتوا لأنهم يموتون فى سبيل هذه الغاية . . . وأى رجل يذوق حلاوة الإيمان ثم لا يرى نفسه أكبر من الدنيا ، وهو لا يرى فى الدنيا إلا جناح بعوضة ؟ أفليس أكبر من جناح بعوضة ؟ ومن يعرف حلاوة الإيمان ثم يتعجب من المسلمين الأولين حين خرجوا ليفتحوا الدنيا بسيوف ملفوفة بالخرق ويقابلوا ملوك الأرض بطائفة من البدو . . . أو يعجب من هذه الفئة من أهل فلسطين حين تقاتل أعظم دولة فى التاريخ الحديث ، ولو اجتمع أهل فلسطين كلهم بنسائهم ورجالهم وأطفالهم ما ملأوا حياً واحداً من عاصمتها ؟ لا . لا تعجبوا من ذلك ، بل اعجبوا من مؤمن لا يرى نفسه أكبر من أكبر دولة فى الدنيا وهو جندى فى دولة الله ، ودولة الله أكبر من كل دولة ، لا إله إلا هو ، له الملك وله الأمر وإليه ترجعون !

* * *

وابتعدا عن البلدة وهما صامتان لا يتكلمان ، وعرفان يفكر فى أبويه اللذين خلفهما يتجرعان الغصص لفقده ، ثم يذكر الواجب فيطمئن إلى أنه أحسن صنعاً حين خرج مجاهداً فى سبيل الله ، ولكن عاطفته لا تهدأ ولا تقر ، فيحاول أن يتسلى بهذه المناظر الفتانة التى تبدو له فى هذه الغداة الباكرة فى غاية الجمال ، فلا يبكيه شيء فيندفع يغني بصوت خافت حزين هذه الأغنية المعروفة . . .

« ياوالدىّ سيصدع موتى فؤاديكما وستسكبان الدموع غزاراً ، ولكن تراب قبري سيجف فتجف معه دموعكما ، ويلتئم صدع قلبيكما . . . »

« وأنت يا أختى . . . ستنسيك الأيام ذكرى أخيك الشهيد ، وستمحى سطور الحزن من صفحة نفسك . . .

وأنت يا جدى الشيخ ، ستنسى حفيدك الفقيد ... »

« ولكن أخى لن ينسانى ... »

« أنت يا أخى ستظل ذكراى بين عينيك حتى تثأر لى من قاتلى ، وتنضح قبرى الجاف بدم القاتل »

« وأنت يا أخى الأصغر ... لن تنسانى حتى تضطجع إلى جانبى (١)

فلا يختم أغنيته حتى تلعب هذه الخاتمة الشجية التى تحط على النغم (الأصبهانى) بقلب مختار فتثيره وتهزه فيقول لعرفان :

— ولكنك جرعت أبويك كأس الآلام ، فشرباها منذ اليوم حتى الثمالة ...

فيجيب عرفان حزيناً واهياً :

— أعرف ذلك

وتكون فترة يصمتان فيها فلا يسمع إلا وقع أقدامهما العجلة على حجارة الطريق الوعر المهجور الذى تخيراه . ثم يقول عرفان :

— أعرف أنى جرعت أبى كأس الأحزان ، ولكن ما ذا أصنع ؟ أليس لله علىّ حق أكبر من حق أبى علىّ ؟ أنسيت يا مختار ما ذا قال مدرس الدين حين شرح لنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم « من لم يغز ولم يجهز غازياً ، ولم يخلف غازياً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة » والحديث الصحيح « لا يجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » والحديث الآخر : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد »

ألم يقل لنا إن الجهاد فى هذا العصر أفضل منه فى العصور الأولى ، لأنهم كانوا يجاهدون ليضموا إليهم إخواناً وبلاداً ونحن نجاهد لندفع الموت عن أنفسنا وبلادنا ، والجهاد فى فلسطين أفضل منه فى البلاد الأخرى ، لأنها لم تمن بلدة بمثل ما منيت به فلسطين حين دخل عليها اللصان ، فلبس أحدهما جبة الحاكم فقضى وهو اللص ... وارتدى الثانى رداء التاجر فاشترى ... وهو السارق ... وكان خلاصة الأمر كله ، أن تقول للمالك : قم فاخرج من دارك لنعطيها لهذا السارق ، أو ... أو نهدم دارك ، ونقطع رأسك

— رحمه الله ـ هذا ما قاله بالحرف . لقد كان .

— لقد كان ؟ أتعنى أنه مات ؟

— لا . ولكن سفح دمه على أرض الحرم الأقدس ؟

— ؟ ؟

— لقد شنقوه ، شنقوه لأنه حمل مسدساً .

— أو لا يرون (أولئك) يحملون المسدسات والمسبعات جهاراً نهاراً ، فلم لا يشنقونهم ؟

— (أولئك) من الشركاء ـ ولكن مالنا نتألم ؟ من كان مع الله فلا يحزن ، أتشك فى وعد الله ؟

— لا والله ما شككت ، ولكنى أفكر فى أستاذى ، رحمه الله ، أيشنق عالم جليل فلا يتحرك له أحد ؟ وهؤلاء الذين يحملون راية الدين ، ويملكون الحول والطول ، وتسير بأمرهم الجيوش ... أما

(١) أصل فكرة هذه الأنشودة لتولستوى

بين أضلعهم قلوب تعرف الايمان ـ فتحركهم إلى نصرة المظلومين ؟ ..

— وله ؟ وهل ضعفنا أو جبنّا ؟ إن هـذه البلاد ياصديقي متعودة ، متعودة الحرب . ألم ترد جيوش أوربة كلها في يوم من الأيام ؟ فماذا ينقص الأبناء عن الآباء ؟ أنسينا ؟ إن نسينا ذكرتنا بتاريخنا هذه الجلاميدوهذه الأصلاد ـ وذكرتنا أجنادين ، وذكرتنا حطين ، واسم صلاح الدين ؟ ان الارحام التي ولدت صلاح الدين لا تزال تحمل وتضع ، وان الله الذي نصر صلاح الدين هوالله ، « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » فلتدافع عن (أولئك) الدولة صاحبة الأساطيل ، أو فليدافع عنهم الانس والجن ، إن الله يدافع عن الذين آمنو ، والله أكبر !

— ولكني أخشى عليك ياعرفان ، أنت ابن الترف والنعيم ، نشأت تتقلب في ثياب الحرير ، وتنام على ريش النعام ، فكيف تنام غدا على الحجر والمدر ، وتصبر على الجوع والعطش ، وتحمل لدع الشمس ووقع الرصاص وحر السيوف ، إنها الحرب ياأخي ، إنها الحرب ، ليست جولة كشفية ، إلى اليمين در ، إلى الأمام سر ، ثم تعود إلي بيتك فتجد حمامك مسخنا ، وطعامك مهيئا ، وفراشك موطئا . إنهـا الحرب ليست هزلاً ولا لعبا ، أفتستطيع أن تمضي يومك في الكر والفر ، بين القنابل المتفجرة ، والرصاص المتساقط كوابل المطر ، ثم تقوم الليل كله بلا طعام ولا منام ؟

— لست أدري ياختـار ، وما جربت ذلك ولكنّ الذي أدريه هوأني خرجت مجاهداً في سبيل الله . ألم يقل لنا مدرس الدين ، ذلك الشهيد المرحوم : إذا دخل العدو أرضا للمسلمين صار الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة كفرض الصلاة ؟ .. أنسيت الحديث الذي علمنا إياه : « سئل رسول صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » ونحن خرجنا لإعلاء كلمة الله ، لا لدنيا ولامال ولا لجاه ولا دفاعاً عن حب ولا أرض ولا وطن ، فاذا متنا فنحن الشهداء ، أنسيت الحديث الآخر ؟ إني لا أزال أحفظه ، رحم الله أستاذنا

— أي حديث ؟

— قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة »

— لا لم أنسه ، ليتنا نموت شهـداء ، اللهم اكتب لنا الشهادة .

وملكهما حماس طاغٍ ، فأسرعا وهما ينشدان أنشودة الموت التي يحفظها المجاهدون كلهم ، ويلقونها بنغمة تهتز لها أوتار القلوب كلها ...

« أيها العصافير ! »

« طيري إلى منازلنا وبلغي الأمهات والأخوات أننا متنا في سبيل الله ، ومن أجل فلسطين »

« قولي لهن : إن أجسادنا لن تسكن اللحود الضيقة ، ولن تحويها الأرض الظالة ، ولكنها ستسكن بطون القشاعم والنسور المحلقة في شعاع الشمس ، وبطون الذئاب الشاردة في الفضاء الأرحب »

« أما أرواحنا فسترق إلى جنان الخلد »

« أما أسماؤنا فستكتب في تاريخ البطولة بأحرف من النور »

« أيتها العصافير ، طيري إلى منازلنا فبلغي الأمهات والأخوات إرادتنا الأخيرة : هي أن يهيئن أطفالنا لخاتمة بارعة لحكايتنا »

* * *

سارا سحابة نهارها فبلغا قرية مختار في الساعة التي يعود فيها الرعاة من الجبال ، وتزدحم فيها النسوة على الينبوع ، وكان التعب والجوع قد هدّا عرفان هدًّا ، فاتجه به إلى أكبر دار في القرية ، وكانت تلك دار مختار ، فجاز به (بوابة) من الحجر إلى ساحة واسعة فيها فرسان كريمان مرتبطان ، وثلاثة من الابل ، وفي وسطها تل من العلف . فمشى به خلالها حتى انتهى إلى باب الدار فقرعه ، فخرج صبي في التاسعة عرف عرفان منذ نظر إليه أنه أخو مختار ، فقد كانا متشابهين حتى ليصعب على المرء أن يفرق بينهما لولا السن ، ولولا دعج ظاهر في عيني الصغير الكبيرتين اللتين تشبهان إذا فكر الصبي أو أطرق سبحات مقلتي ظبي شرود فصاح به مختار :

— أين أبوك يا نوري ؟

فأجاب الصبي بصوت غرد كأنه صوت بلبل :

— ذهب في هذا الصباح إلى الجبل . لقد علم الثائرون بأن حملة كبيرة لم يروا مثلها ، ستتوجه تلقاء الجبل

فلما سمع ذلك عرفان نسي تعبه ، واستعاد نشاطه وأحس بقلبه يرقص في صدره فرحاً بالمعركة ، وصاح بمختار :

— هلم بنا ، أسرع ، أين البنادق ؟

— حاضرة ! لقد اشتريت لك خير أنواع البنادق وأعددت لك مائتي رصاصة ، والخيل مربوطة في الساحة ، اذهب يا نوري فر حمدان أن يعد الخيل وهات البنادق

فوثب الصبي ليذهب ، ولكن امرأة في الأربعين من عمرها ، سافرة على طريقة الفلاحين ، هذا السفور المحتشم الذي نرجو أن نستبدله بهذا التبرج الفضاح الذي نسميه (هنا) حجابا . . . استوقفته هذه المرأة وأقبلت على ابنها تقول :

— أدخل أولا

فأطاع مختار ودخل معه عرفان ، ينظر إليها وهي تعانقه وقد انفجرت بالبكاء

— أتبكين يا أماه ؟

— لالا . ولكني لا أدري هل أراك من بعد أم لا ؟

— ولكن مابالك يا أماه ؟

— لا شيء ، لا شيء ، استودعك الله . . . وهذا الذي معك ، من هو ؟

— هذا صديق عرفان ابن الوجيه الكبير ل . . .

— آه ، وأنت أيضا ياحبيبي ؟ أهلا ومهلاً ، وشرفتنا يابني ، اللهم احفظ وسلم

— أشكرك ياخالة وأستودعك الله .

ماذا ؟ أتذهبون ؟ لا والله ، لقد مشيتم النهار بطوله ، أفجنونة أنا حتى أدعكم تصلونه بالليل ؟ لا والله . بل تنامون هنا وتذهبون إن شاء الله في الصباح مع من بقي هنا من رجال القرية

— ولكن ياسيدتي

— لا والله ، لا أدعكم تقتلون أنفسكم ، لو كانت أمك هنا أكانت ترضي عن ذهابك الآن ؟ أنا مثل أمك ياحبيبي . إن رفيق ابني هو ابني ، ثم إن المجاهدين بل المسلمين كلهم أسرة واحدة . . .

ودخلت فتاة صغيرة أصغر من نوري وبها من

أخويها مشابه ، غير أنها أدنى إلى البياض ، وكانت تلبس إزاراً أخضر وملتفة بمنديل أحمر يزين أطرافه طراز أصفر من القصب ، فلما رأت الفتى وقفت وأحجمت ، فصاحت بها أمها :

— أدخلي يا بنتي ، هذا أخوك عرفان ، ذاهب إلى الجهاد ، رحبي به ثم اذهبي فأعدي الطعام ، هيا حالاً . وأنتما فانزعا ثيابكما واغسلا وجهيكما وأيديكما . قم يانوري فأعد الماء وصب عليهما ، ثم اذهب فساعد أختك . هيا يا بنت أسرعي ؛ إنهما جائعان ...

* * *

نال التعب والسير الطويل وسهر الليلة الماضية من عرفان ، فلم يكد يضع رأسه على الوسادة حتى انحدر إلى قرارة نوم عميق ، لم يفق منه إلا سحراً حينما أيقظه مختار ليمشي إلى الجبل ، فنهض مسرعاً فتوضأ وصلى الصبح ، ثم لبس الثياب التي دفعها إليه مختار ، وأدار العقال على رأسه ، ثم حمل بندقيته واستوى على ظهر فرسه ، ليمشي إلى الجهاد ، وهو يحس لفرط سروره أن الدنيا على رحبها أضيق من أن تسعه ...

كان يظن أن الحرب من السهولة بحيث تكون كما قرأ في (قصة عنتر) فكان يتخيل أبداً كيف يبرز بعد ساعة إلى الميدان وينادي أنا عرفان ... فيصول فيه ويجول وينازل الفحول ، ثم يهجم على الآلاف المؤلفة ، فيقتل الرجل ثم يحمله فيضرب به الآخر ، ويطعن الطعنة فيصرع الفارس وفرسه ، ويضرب الضربة فتخترق الهامة وتقطع الدرع ، ثم تنزل إلى السرج فتفقده هو والفرس قدًّا ...

خرج الرجال من القرية وهم قريب من مائة ، فيهم عشرون فارساً ، فسلكوا الشعاب الوعرة لئلا يلقوا على الطريق المطروق مايعوقهم عن غايتهم . وكانت وجهتهم جبل النار ، فانطلقوا ينشدون أنشودة النار بصوت كانت تضطرب له الجلاميد ، وتتوارى منه الأودية الرهيبة فزعاً ... الأنشودة التي معناها :

« يا جبل النار ... »

« هل درى من سماك في أول الزمان جبل النار أنها ستخرج منك النار التي تزهق البغي والظلم والاستعمار ؟ يا جبل النار ... »

« هل درى أن هذه الفئة من أبطالك ستأكل جيوش الدولة ذات الأساطيل ، كما تأكل النار من الحطب شعلة واحدة من النار ؟ يا جبل النار ... »

« هل دريت أنت يا جبل النار أن الأجيال الآتية ستتخذ منك حرماً للحرية مقدساً ، فتكون الشارة الحمراء والمنار للسارين في طريق الجهاد ؟ يا جبل النار »

« يا جبل النار ، صخورك الجحيم المتوقد في شعاع الشمس ، ولكن الله الذي وطّأ لناذراها وسهل لنا صعابها ، وأسكننا منها أوكار النسور ، وربى السباع ، هو الذي أحال نارها برداً علينا وسلاماً ، فأنت جحيم الأعداء وأنت جنة لنا ، فهل اجتمعت إلا فيك الجنة والنار ؟ يا جبل النار ... »

« فيا جبل النار ، ثر واضطرم ، ولتمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب ، وليحرق دور الظلم ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت في البحار يا جبل النار ... »

« يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار ، نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البراكان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمتى يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه

جمرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صلاح الدين ... يا جبل النار ! »

كان عرفان ينشد الأنشودة وهو رافع رأسه زهواً ، يظن أنه أوتى الخلافة ، أو أنه غدا خالداً أو قتيبة أو طارقاً ... كان وهو فى داره يخشى أن تصيبه شوكة ، ويألم إن لفحته نسمة باردة ، ويفزع من ذكر المرض ، فما باله الآن لا يجزع من الموت بل هو يسعى إليه ويريده ، ولا يأمل إلا الشهادة فى سبيل الله ؟ لقد هان عليه الأعداء وصغروا فى نظره حتى لقد خالهم الذباب أو أسراب النمل حينما وقف القوم وراء الصخور العالية ، ونظروا إلى الحملة وهى تجتاز الطريق البعيد كأنها خط أسود لا يبين له أول من آخر ، ولقد كان الجندى الواحد يراه فى بلده أكبر فى عينه من هؤلاء جميعاً

ورأى القوم يطلقون النار فأخرج بندقية فأطلق منها الرصاصة الأولى ، ولم يصنع شيئاً ولكنه كبر فى عين نفسه وأحس أنه أصبح رجلا حقاً ومجاهداً صدقاً ، وود لو يطير إلى الحملة حتى يسقط عليها ، ولكنه كفّ ووقف حين كفّ القوم ورأوا أنهم لن يصيبوا عدواً .. وساروا فى طريقهم إلى الظهيرة والحملة تبدو لهم عن بعد ثم تختفى وراء الصخور كأنما كانت تسايرهم أبداً وطفقوا ينظرون إليها فيرونها ثابتة لا تريم مكانها ، حتى إذا أصبحت عند مفترق الطرق ، وبلغت سفوح الجبال وأقبلت تتسلقها رأى القوم الزلزال تزلزله الأرض من تحتها فتخرج أثقالها ، وينقلب عاليها سافلها ، ويمتلئ الجو بالدخان ، وكان ذلك كله فى لحظة سمعوا على أثرها الدوىّ الهائل الذى قصف فى الدنيا كأشد ما عرفت الدنيا من رعود ، فعلموا أن الثوار قد وضعوا (الألغام) على طول الطريق ، وتركوا الحملة تسعى إلى حتفها بظلفها فتحطمت تحطيما ، وعلموا أن المعركة قد انتهت وكفى الله المؤمنين القتال[1] فارتدوا إلى القرية ، أما عرفان فكانت تتقاذفه عاطفتان الفرح بالنصر المؤزر ، والندم على أنه بات فى القرية فلم يحضر المعركة ولم تكتب له الشهادة فى سبيل الله فيدخل الجنة

* * *

بلغ عرفان وأصحابه القرية عند المساء ، فاذا كل شىء تبدل ، فلا الدنيا بالدنيا ، ولا الناس بالناس ، وإذا القرية قد هدمت كلها ، وأحرقت سقوفها وأبوابها ونوافذها ، فاختبل مختار وجنّ ، فعدا فرسه إلى داره ولحقه عرفان وبه مثل مابه ، فاذا الدار أكوام من التراب ، وإذا العلف قد أحرق ، والأشجار قد قطعت ، فدار فى أرجائها ينادي أخاه وأمه ، ويهتف بأخته ، فضاع صوته فى ضجيج الرجال وصراخ النساء فمشى يفتش صامتاً ينظر فى التراب ، وقد أدركه الخبل حقيقة فلم يعد يقوى على التفكير فى شىء ، وسلم أمره إلى الله ، وتبعه عرفان ينظر كما ينظر ، فإذا هو يرى ويا لهول ما يرى ، يرى ذلك الصبى صاحب العينين الفاتنتين الدعجاوين ... ملقى على باب المسجد قد مزقت حراب الأعداء جسده الأبيض الجميل وإلى جانبه أمه قد صرعتها رصاصة كسرت جمجمتها ...

فجذب مختاراً من يده حتى لا يرى ، ولكن مختاراً أحسّ بالأمر فنثر يده وأقبل ينظر فاذا هو يرى كل شىء : ضاع الباقى من وعيه فانحنى على أمه وأخيه يقبلهما ويمرغ وجهه بدمائهما ، ثم نهض متهافتاً فتعاون هو وعرفان على مواراتهما حتى إذا

(١) رواية صدق عن شاهد عيان

أقام فوقهما شبه قبر ، وما القرية كلها فى الحقيقة إلا قبر، وضع يده الملموسة بالدم على القبر ، وأقسم لينتقمن ... وأقسم عرفان !

وتركا أهل القرية يدفنون الموتى ، ويرفعون أوراق المصحف التى ألقيت على أرض المسجد وديست ، وغادراها تضج ببكاء الأطفال الذين ماتت أمهاتهم بالبنادق ، والأمهات اللائى قطع أبناؤهن بالحراب . وعادا مع الرجال إلى جبل الحرية المنيع ينشدون أنشودة الانتقام ...

« إلى جبل النار ، إلى جبل النار ... »

وكان مختار (يصف) لهم بصوت يكاد يقطر منه الدم ...

« لقد غرست شجرة الزيتون يا أمى بيدك ، وسقيتها كل يوم لتقطفى منها الغصن الذي تجعلينه على رؤوس أبنائك فى موكب العرس . لقد بنيت الدار يا أبى بيمينك لتسكن فيها بنيك الذين تحبهم مع زوجاتهم ، فقطع الأقوياء الشجرة ، وهدموا الدار ، وقتلوا الأطفال ... »

وهم يرددون اللازمة : « إلى جبل النار ، إلى جبل النار »

— « أرأيتم أخى نورى ؟ لم يعد لعينيه سبحات مقلة ظبى شرود ، ولا لصوته رنة بلبل غرد . لقد قتلوه فها هى ذى جثته ملطخة بالوحل والدم . لقد نام إلى الأبد على يد أمه التى ذبحها الأقوياء المتمدنون »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « أرأيتم كلام الله ، وبيت الله ؟ لقد مزقوا المصحف وهو كتاب الحق والنور ، وداسوه بأقدامهم[1] . لقد استحلوا حرمة المسجد ، وهو دار السلام ، وأقاموا فيه حرباً ، فماذا تنتظرون من الأقوياء المتمدينين بعد ماعبثوا بحرمة الدين وحرمة الانسانية البريئة ... ؟ فالى جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « هذه مأساة الأندلس ... ولكنا لم ننس مأساة الأندلس بعد ، ولن ندعها تعاد أبداً ، لا فى فلسطين ولا فى اسكندورن ، ولا فى بقعة من بقاع . وها نحن أولاء ذاهبون نحقق ما نقول ... »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

— « يا أمى ، يانورى ... ياأختى التى لا أدرى أين قبرها ، اهجعوا فى أمان ، فكلما سفك دم جديد نبتت فى القلوب بغضاء جديدة ... كلا ، ما هى بالبغضاء ! ما البغض ؟ ما العداوة ؟ إن العاطفة التى يحتويها اليوم صدر كل عربي، بل كل مسلم، شىء أكبر من البغض ، وأشد من الحقد ، وأبلغ من العداء — إنها عاطفة سوداء مبهمة ، عظيمة مخنقة تتوارثها القلوب ، فلا تزداد إلا سواداً وعظمة ورهبة ... »

— « فياجبل النار ثر واضطرم ، وليمتد لسان لهيبك ، ولتسقه رياح الشرق نحو الغرب وليحرق دور الظلم ، ومعاقل الاستعمار ، ولو سبحت فى البحار ، ياجبل النار »

— « يا جبل النار ، نحن أيضاً جبال من نار . نحن الأعاصير المحرقة ، نحن البركان المتفجر ، نحن الحمم المتوقدة ، فمتى يمد يده إلى الجحيم ليأخذ منه جمرة ... ؟ يا جبل النار ، أنت اليوم حطين ، وكلنا صلاح الدين ، يا جبل النار »

— « إلى جبل النار ... إلى جبل النار »

« دمشق » على الطنطاوى

(١) رواية مؤيدة بالصور الفوتوغرافية

تجربة قاسية

مترجمة عن الانكليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

إن التغيير المستمر الذى طرأ على مركز المرأة قد سبب كثيراً من مصائبنا الاجتماعية ، ولا تزال الحالة تزداد كل يوم سوءاً

وما دامت المرأة ترى واجبها فى الحياة أن تكون أماً وزوجة وربة منزل فهي شريكة الرجل فى سروره وحزنه وغناه وفقره . ولكنها متى تركت هذا المجال فلا يمكن أن تكون إلا واحدة من اثنتين : إما خادماً للرجل وإما حاكمة له ، ومن أجل ذلك كان أتعس السيدات هن نساء الطبقة التى يدعونها بالطبقة الراقية اللواتى لا يرين أنفسهن فى حاجة إلى التفكير فى قوت يومهن واللواتى يقضين أيامهن كسالى بليدات ويعهدن بكل واجب من واجباتهن إلى أخريات ، فانهن أقل شعوراً بالسعادة من سائر النساء

ولقد كانت بطلة هذه القصة من النوع الأخير فانها نشأت وظلت طول عمرها لا تقدر مسئولية لشىء ، فهي تنتقل من يد المرضعة إلى يد المربية إلى معلم الموسيقى والرقص دون أن تشعر فى هذه الأدوار إلا بأنها مخدومة وأن على غيرها واجبات لها وليس عليها لأى إنسان أى واجب

وتزوجت من رجل متقدم فى العمر فمات وهى لما تبلغ الخامسة والعشرين ، وقد وجدت نفسها عند موته غنية ذات معجبين كثيرين بجمالها وهى حرة فى اختيار ما تريد وترك ما تشاء ، فكانت نتيجة حياتها على هذا النمط أن شعرت بالسأم وأحست بأن الحياة عبء ثقيل عليها ، فكان لذلك كل عملها أن تقتل الوقت كأنما هي لا تريد إلا التخلص من حياتها جزءاً فجزءاً

ولكنها مع هذا السأم من الحياة كانت زينة الحياة وبهجتها فى أعين كثيرين ، ومن الفطات الشائعة أن الناس يحسبون كل جميلة العينين وسيمة الوجه تكون حتما ذات ذكاء يتناسب مع جمالها وتكون ذات روح شعرية

ولئن كان فى السيدات من تجتمع فيهن هذه الصفات فان صاحبتنا البارونة أديل لم تكن كذلك بل روحها قاتمة مظلمة

وكانت متوسطة الطول نحيلة شديدة البياض بحيث يظهر فى جلدها الناصع لون عروقها الزرقاء وهى جميلة الوجه والأنف صغيرة الفم وردية الشفتين ذهبية الشعر ولكن عينيها كانتا أجمل شىء فيها فقد كانت نظراتها الوسنى مثل نظرات الحالم

وقد قضت سنوات فى الحداد على زوجها تتنقل بين البلدان فزارت إيطاليا وفرنسا الجنوبية وأسبانيا ، وكان أحب أماكن الاصطياف إليها جبال التيرول حتى لقد جمعت كل صورها ومناظرها فوضعتها فى غرفة استقبالها . وفى يوم من الأيام أرادت أن تتسلق إحدى قممها الشاهقة بالجليد فلبست ثوباً من الفرو وأمسكت بعصا غليظة وصعدت إلى الجبل قبيل الغروب ، فلما وصلت إلى مكان مرتفع منه كانت الشمس قد غابت . ثم وجدت أنها ضلت الطريق وأصبحت محاطة بحفائر مكدسة بالثلج بحيث لا تستطيع العودة ولا الاستمرار فى المشى

وحاولت عبثاً أن تجد لها منفذاً ، فرأت من

المستحيل أن تتقدم أو تتأخر أو تعلو أو تهبط فاستغاثت بأعلى صوتها، ولكنها لم تسمع غير صدى صوتها فأخرجت من جيب معطفها مسدساً وأطلقته ولكنها لم تسمع غير دوى الطلقات ، فخارت قواها وجلست على صخرة بعد أن أزالت ما عليها من الجليد وظلت تبكى

وبعد ربع ساعة مر عن كثب منها رجل يصغر فنادته وكلمته بلهجة لم تتكلم بها منذ سنوات وهى لهجة التوسل والضراعة وطلبت إليه أن ينقذها فمشى نحوها رافعاً قبعته محيياً باحترام . وعرض عليها مساعدته فشكرته شكر الضارع الخاضع ورأت من ثيابه ومن الأسلحة التى يحملها أنه من هواة الرياضة والصيد . ودلتها هيئته على القوة والاعجاب

قال لها : « اسمحى لى أن أحملك »

فقالت : « أخشى أن أسبب لك تعباً كثيراً »

قال : « لا داعى إلى مثل هذا القول »

ثم حمل البارونة بين يديه فشعرت وهى محمولة بشعور غريب لم تجربه من قبل . وكانت أنفاسه الحارة تدفئ خديها فتساءل نفسها أى شعور هو الذى تجده فى نفسها فى هذا الوقت، هل هو الحب ؟

فلما وصل بها إلى الفندق الذى تقيم فيه شكرته ودعته إلى زيارتها ووعدها بأن يرافقها فى فرصة أخرى إلى جبال التيرول . وسألته عن اسمه فقال إنه فردريك فون فاردورف

قالت : « أنت ذلك الرومى الشهير ؟ لقد سمعت اسمك يتردد كثيراً فى الأوساط العالية »

فأخبرها فاردورف بأنه من أسرة ألمانية تنتمى إلى أصل روسى ، وأن ضياعه فى كونترلاند ولكنه لم يزرها منذ سنوات لأنه كان فى العهد الأخير يزور بقاعاً مختلفة من الأرض

وفى اليوم التالى زارها فاردورف ودار الحديث عن زياراته لأمريكا الجنوبية وأفريقيا الشمالية وقرأ لها قصة أو قصتين من قصص إيفان ترجنيف . وكانت تصغى إلى حديثه منلذذة وتدعوه إلى تكرار زياراته فكررها . وصارت بعد ذلك تخرج معه إلى جبال التيرول وإلى غيرها من المتنزهات وتدعوه للعشاء كل ليلة . فأخذ الناس يتحدثون عن علاقاتهما وعن احتمال زواجهما قبل أن يتم التفاهم على شىء من ذلك

وفى ليلة من الليالى كانا جالسين معاً فى المنزل فقالت إديل : « إننا سنفترق سريعاً يا فاردورف »

فقال : « لماذا ؟ »

قالت : « لأننى تغيبت عن منزلى طويلا وأريد العودة ، فهل تزورنى هناك ؟ » فقال : « ما الذى تعنين ؟ هل تحبين ألا أزورك ؟ »

قالت : « ما الذى تعنيه أنت ؟ إننى أتألم كثيراً إذا ابتعدت عنك » فقال الرومى بلسان متلعثم : « هل تسمحين ؟ ... ألا يغضبك ... ؟ »

قالت : « تكلم : ما الذى يمنعك من الكلام »

فقال : « إننى أحبك يا إديل »

فأطالت البارونة التحديق فى وجهه فقال : « لا تمنعنى عن الكلام حتى أقول كل ما أريد »

قالت : « ولكننى لم أعد أومن بالحب » فقال الرومى : « أعرف ذلك ولم أعلل نفسى قط بأنك ستجازينى على حبى بمثله ، ولكنك قلت لى مراراً إنك تعيشين بغير غرض ولا تسرين من أى بواعث السرور فعيشى معى زوجة لى وأنا الكفيل بأن ينشأ فى قلبك ميل لى بعد الزواج »

فنظرت اديل نظرة شاردة من النافذة دون أن تجيبه بأي جواب وسكت الرومى لحظة ثم قال : « قرري ياسيدتى بكلمة منك إماحياتي وإما موتى »

فأجابته وهى تبتسم : « الحياة أو الموت ؟ »

قال : « نعم إننى أعنى ما أقول فاني أفضل الموت إذا لم تحبّيني » فقالت المرأة التى لاقلب لها : « هذا مجرد تعبير »

قال : « كلاولكنه الحقيقة فاختاري لى الحياة أو الموت » فقالت : « إننى سأعطيك مهلة عام فاذا لم تستطع فى خلالها إقناعى بأنك تحبنى حقيقة وإذا لم تستطع أن تبعث فى نفسى عاطفة الحب نحوك فانى سأقضى عليك بأن تقتل نفسك »

قالت ذلك ثم بدأت تضحك ضحكاً عالياً فقال الرومى وهوعابس مقطب : « إذا حكمت بعدانقضاء العام بأنه لا أمل لى فى الحياة معك فانى أفعل كما تريدين ولكن يكون لى عندك رجاء آخر »

قالت : « ماهو ؟ » فقال : « هوأن تقتليني أنت »

قالت : « لك ذلك » فقال : « ولكن هل تستطيعين ؟ »

« ولم لا ؟ انه يستوى عندى أما أن تقتل نفسك من أجلى أوأن أقتلك بيدي » فقال الرومى : « إذن فعاهديني على أنه بعد انقضاء العام إما أن تقتليني أو تتزوجى منى »

قالت : « أعاهدك على ذلك ولكن يجب أن تتذكر أنت أيضاً تعهدك عند انقضاء العام وألا تنتظر منى رحمة »

فقال : « لا وسط بين الحالتين فاما أن تكونى لى وأما أن أموت »

ومدّ كلاهما يده إلى الآخر فتعاهدا على ذلك

ومضى العام وهما يعيشان معاً فى منزلها بغينا وكان الليل ساجياً من ليالى الربيع الجميلة وهى جالسة على غرفة بجانب الشرفة وهو جالس عند قدميها فقالت : « هل نسيت ؟ »

قال : « نسيت ماذا ؟ » فقالت : « هل نسيت عهدنا ؟ إن اليوم موعده » فمرت جسم الرومى رعشة باردة وقالت له همساً : « ادن منى وأخبرنى ما هورأيك اليوم فى تعهدك قبل أن تسمع حكمى »

قال : « إننى أرتعش . . . » فقالت : « إذن فاسمع الحكم : « إنك قد أقنعتنى بأنك تحبنى فليس عندى شك فى ذلك . . . »

وهنا ارتمى الرومى على قدميها ليقبلهما فقالت : « لا تتسرع فانك لم تسمع بقية الحكم »

قال : ما الذى تعنين ؟ فقالت : « إنك أقنعتنى بأنك تحبنى ولكنك لم تستطع أن تجعلنى أحبك »

قال : « ما أشد قسوتك ياأديل ! »

فقالت : « إننى أكلمك كلاماً صريحاً شريفاً »

قال الرومى : « أنا عند حكمك إذن فاقتليني »

فقالت : « هكذا سأفعل فانى ذاكرة عهدى . وروحك الآن فى يدى ولن أتركها هبة لك . إننى لاأحب ولكننى أريد أن أكون محبوبة وأن يحبنى من يحبنى فيموت تحت قدمى وأنا أنظر إليه نظرة احتقار »

قال : « هل تجدّين فيما تقولين ؟ » فقالت : « ألا تصدق ؟ هل حبك لنفسك أكبر من حبك لى ؟ »

قال : « كلا كلا : وإنى مستعد للموت »

فقامت وعادت وفى يدها زجاجة صغيرة مملوءة بسائل أسود وقالت : « اشرب هذا »

فتناولها وقال : « أشرب فى حبك ياأديل »

ثم قال : « ناوليني يدك فان قواى تخونني »

ثم أظلمت الدنيا فى عينيه . وبعد ساعتين أفاق فوجد رأسه على حجرها وهى تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة دالة على السعادة

قال: « ما الذى حدث ؟ » فنادته باسمه بصوت عذب فقال : « هل أنا أحلم الآن ؟ ألم أمت ؟ »

قالت : « كلا وستعيش وستكون لى زوجاً فانى أحبك كما تحبنى » فقال : « وما هو السائل الأسود الذى فى الزجاجة ؟ ألم يكن سماً ؟ »

قالت : « كلا، ولكنه مخدر » فقال : «لماذا؟»

قالت : « لكى أجربك » فوقف الرومى مسرعاً وقال : « تقولين إنك تحبيننى ولكنك مع ذلك تتركيننى أقاسى أشد الآلام بقصد اللهو والتسلية إن المرأة التى تفعل ذلك لا تستطيع أن تملك قلبي »

قالت اديل بصوت الخائف : « ألم تعد تحبنى يا فاردورف؟ ما الذي جعلك تتغير هذا التغير الفجائى ألم تعد تحبنى ؟ » فقال : « إننى لا أحبك الآن ولن أحبك فى المستقبل ، وداعاً ! »

فطوقت اديل عنقه بذراعيها وقالت : «أستحلفك بحق السماء ألا تجعلني أتعس إنسانة فى الوجود » فقال : «أنت التى أتعستنى وأتعست نفسك، وداعاً»

قال ذلك ثم تخلص منها فارتمت على قدميه ولكن ذلك لم يفد وأظهر قوة إرادته فخرج مغضباً

ولما جاءت الخادمة وجدت إديل مستلقية على الأرض جثة هامدة »

عبد اللطيف النشار

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

ص

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

كتابان قيمان

سيظهران فى أواخر أغسطس

هكذا تكلم زرادشت

الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

اعترافات فتى العصر

الشاعر الخالد ألفريد دى موسيه

وكلاهما ترجمة الأستاذ

فليكس فارس

من أرسل ٢٠ قرشاً قبل صدور الكتابين عد مشتركا فيرسل له الكتابان إلى حيث يقيم داخل القطر أو خارجه «دون علاوة لأجرة البريد » ، ومن أرسل ٢٥ قرشا يرسل له أيضاً كتاب « رسالة المنبر إلى الشرق العربى » تاليف المترجم — العنوان : إدارة مطبعة البصير بالاسكندرية

حكمة الموت

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندى عبد القوى يشعر بتوعك المزاج . آيته همود فى الجسم وثقل فى الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — فى الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو يعللها بكثرة العمل تارة وبادمان السهر تارة أخرى ؛ وفعلا طلب إجازة قصيرة وكف عن السهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب. وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالتزام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلوق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحمراء وتعاطى الخمور ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندى من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — فى ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً ، ولأنه من الأمراض التى يمكن تلافى خطرها بالعناية والحرص فى اختيار الطعام والشراب ، ولأن محمد أفندى شاب فى الخامسة والثلاثين فلا ينذره الضغط بما ينذر به ذوى الستين أو السبعين. والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلا عن هذه الحقائق ولكنه فى الواقع لم يخش المرض فى ذاته قدر ما خشى التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو فى مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلا فساءت حالته وأصابه الشلل فقضى فى عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه فى عنفوان شبابه حادثاً غريباً فى أسرته ، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذاكرته لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفى وهو — أى محمد — غلام صغير ، ولكن صورة المرحوم المعلقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه ، وإن الناظر إلى الصورة ليقتنع بهذه الحقيقة التى تدل على أثر الوراثة . فالجبهة المربعة والعينان العسليتان المستديرتان ، والأنف الكبير المائل إلى الفطس ، والفم العريض المغطى بالشارب الغليظ ، والوجه الممتلئ والجسم البدين ... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحى كالأصل وصورته ، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه فى ثياب بلدية .. الجبة والقفطان والعمامة ..

يا له من شبه عجيب ! ولم يكن غافلا عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفطن إليه لأول مرة فى حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا مراء فى أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والدته تنوه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه فى الخلق والطبع فى المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأتفه الأسباب تنهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى ينصت فى انتباه ويهز رأسه فى طرب قالت وهى تبتسم له : « ابن حلال يا بنى . . » أو إذا رجع

إلى البيت بعد منتصف الليل ثملا مترنحاً استقبلته قلقة حزينة وتصيح به وهى تغالب دموعها « إن جرح قلبي لم يندمل بعد ... فلا تفجعنى فيك كما فجعت فى والدك من قبل ... »

فهو صورة صادقة لوالده فى شكله وخلقه وطبعه وها هو ذا يرث عنه مرضه ... فلم لا تكون نهايته كنهايته . ؟ ..

وا أسفاه ! إن هذه الأسرة مقضى عليها بالدمار فقد قضى جده شاباً ، وقضى مثله والده، فليس إذاً هذا المرض من المصادفات المحزنة ... ولكنه بداية النهاية، وما هو إلا معيد تمثيل الدور القصير الذى قام به من قبل المرحوم والده، وقام به قبله جده، وما مرضه هذا إلا سبب تعتل به الطبيعة عليه لتنفذ قضاءها المحتوم فى شجرة أسرته البائسة المقضي عليها بالذبول والجفاف فى إبان ربيعها ...

وجعل يردد فيما بينه وبين نفسه : « الشكل واحد والخلق واحد والسيرة واحدة والمرض واحد فالنهاية واحدة دون ريب » وتشبث وجدانه بهذه الأفكار فقويت عقيدة الموت فى نفسه وملأت شعوره فتمثلت له حقيقة لا تتزحزح ، واستسلم لها استسلاماً تاماً حتى أشفى على القنوط، وبات ينتظر القضاء المحتوم الذي يراه قريباً ... بل أدنى إليه من مخاوفه ...

إننا جميعاً نعلم أننا سائرون إلى الموت ولكننا لا نذكر هذه الحقيقة إلا حين حوادث الوفاة أو لدى زيارة المقابر وفى الساعات النادرة التى نستسلم فيها للتأمل . وفيما عدا ذلك فجبلة الحياة تغمر عادة سكون الموت، وحرارة الأمل تقصى عن أفكارنا برودة الفناء. أما الآن وقد ضرب له شعوره ومنطقه موعداً قريباً للموت فقد ولى وجهه هذا الأفق القريب لا يحول عنه ، وجعل يديم إليه النظر فى استسلام وحزن ويأس ...

وعجب في أحزانه لمن يقول إن الموت راحة، ولم يفقه لها من معنى إلا أن تكون تململا وضيقاً بمتاعب الحياة ، ولكن ما هذه المتاعب بجانب ظلمة الموت ووحشة القبر ؟

الموت ! ياله من حقيقة مخيفة ... لم يشعر بهولها من قبل ... ترى ما هو هذا اللغز الغامض ؟ وما كنهه ؟ وما حقيقة الروح التى ستفارقه بعد زمن يسير وتصعد إلى بارئها ؟ وذكر عند ذاك الآية الكريمة « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أما هو فلم يأت من العلم كثيرا ولا قليلا، وحسبه أن يعلم أن الروح — وهى منبع حياته ووجدانه وأفكاره — ستهجر جسده البائس آخذة معها كل جميل حى غير تاركة خلفها إلا أثراً جامداً ... أو جثة كما يقولون ... فوا أسفاه !

ودلف إلى المرآة وألقى على وجهه نظرة ملؤها الأسف والحزن . وتأمل صورته طويلا ، وجعل يقبض كفيه ويبسطهما ... كم هو ممتلئ صحة وعافية وشبابا ! سينضب معين هذا كله ... ويجف غصنه الرطيب ... وتغيض معانى اليقظة فى عينيه ... ويمسى جثة ... ممزقة ... نتنة ... قذرة ... ترعاها الديدان ... ما أفظع هذا !

والأدهى من ذلك أنه لم يشبع من الدنيا وأحس فى تلك اللحظة كأنه لم يبدأ رحلة حياته بعد ، وود من أعماقه لو تتاح له فرصة فيعيد الكرة ، ليعيش حياة الطفولة السعيدة مرة أخرى ويعيد عهد الصبا

وينقلب إلى الشباب عمراً مديدا ، ولا يترك الدنيا إلا وقد شبع من مسراتها وتزود من خيراتها ...

كلا إنه لم يشبع من الدنيا ولم يتمتع بحياته كما ينبغي له . وإنه ليسأل نفسه وسط حزنه وأسفه ويأسه: (ماذا صنعت بحياتي؟) فيعييه الجواب كأنه ولد بالأمس القريب ، ثم يزول عنه الإعياء والعجز فتأتيه الذكريات تباعاً ، خفافاً وثقالا ، فلا يكاد يظفر فيها بما يجوز أن يعده من السعادة الصافية التي تطيب بها الدنيا وترجى لها الآخرة . أما ماينغص الطمأنينة وينتزع آهات الحسرة والأسف فكثير لا يحصى ، وما يتبقى من الوقت ما يتيح الفرصة لإصلاح فاسده والتكفير عن سيئه ...

ماذا صنعت بحياتي ؟ قد يطرح هذا السؤال قوم فيأتيهم الجواب السعيد في آيات الفكر التي أورثوها الانسانية كافة أو الأعمال المجيدة التي بذلوها لأوطانهم أو الكفاح النبيل الذي أدوه للأسرة والأبناء ، أما هو فلم يك واحداً من هؤلاء ... لم يضطلع بتبعة من تبعاتهم ولم يبذل تضحية من تضحياتهم ولم تكلل هامته بوسام من أوسمة مجدهم وجهادهم ... فلم يختلج في صدره قط معنى من معاني الانسانية ولم يعرف الوطنية إلا شقشقة لسان وجدل فراغ، ولم يقدم على الزواج ولا قدر مافيه من مغزى طبيعي خالد أو واجب اجتماعي نبيل . وبالجملة عاش لنفسه يرسف في أصفاد الأنانية وينزلق يوماً بعد يوم في مهاوي الحيوانية والجمود ...

وقد يكون من المغالاة أن يقال إنه لم ينتبه من قبل إلى تفاهة حياته ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه الحري بأن يبعث فيه روح الندم الصادق وأن يحثه على التفكير والتجديد، فكان إذا ضايقه التفكير في تفاهته أغمض العين على القذى وقال لنفسه معزياً «إن في العمر متسعاً للتغيير ... » ولكنه لا يستطيع أن يقول ذلك الآن والموت لا يمهله إلا شهوراً معدودة ... ولو أن حياته اقتصرت على التفاهة لربما هان الأمر ... ولكنها تتلوث في صميمها بالاثم والشر والخنوع مما يندى له الجبين خجلا ويتنزى له القلب ألماً وحزنا ...

ذكر حياته الحكومية فذكر بها الذل والهوان والضعة والجبن ... هو ولا شك موظف مجتهد ودقيق في عمله ولكنه كان دائماً أضعف من أن يقاوم الوسط الذي وجد فيه ، فكان يجاري التيار ويتفادى التصادم ويمنع إشفاقاً من النقل والاضطهاد فأدى به خوفه من الاضطهاد إلى أحط أنواع الاضطهاد والذل ، ووجد نفسه يخوض في الأعراض ويجامل في الحق ويتغاضى عن الذل ويسكت على الاهانة ... فيالله الضعة !

وذكر حادثة أهوت به إلى الحضيض وتقبلها في وقتها قبول الفاجرين ، إذ كانت تختلف إلى بيته امرأة عجوز تحتال على العيش ببيع البيض والفاكهة، وكانت أمه تشملها بالعطف فتطعمها وتكسوها مما جعل المرأة تطمئن إليها وتعهد لها بحفظ أرباحها الضئيلة حتى تجمع لديها خمسة جنيهات أوصت - إذا أصابها قضاء الموت - أن ترد إلى ابنتها البائسة وأبنائها اليتامى ... ومانت العجوز فعهدت أمه إليه برد المال إلى مستحقيه ... وآسفاه ! ... لقد كان يعلم أن المتوفاة كانت تخفي أمر تركتها عن ابنتها ، فما كان منه إلا أن دس الجنيهات في جيبه وبددها في المقامرة والشراب ... وهضم ضميره البليد فعلته الشنعاء وارتضى السرقة وحرمان اليتامى

حقهم دون وخز أو ألم ... فأى دناءة وحقارة !

وذكر ليالى العربدة والفجور التى عرفته فيها الحانات مدمناً لا يريم ، وموائد القمار لاعباً مدلساً لا يشق له غبار ، والمستهترات رفيقاً لا يشبع ولا يرعوى ... أواه ... إنه ينبغى له أولا أن يستل الدين والايمان من صدره قبل أن يعد تلك الليالى الحمراء من الحياة السعيدة التى لا يجوز أن يندم على ما فعل فيها ...

وذكر أيضاً غرامه ... فقد استطاع قلبه على تفاهته وتلوثه ـ أن يحس ويخفق ، ولكنه كان غراماً عجيباً ، بل لو أن إنساناً سماه كراهية ما جاوز الحقيقة ... كانت فتاته أخت طبيب كان فى صباه صديقه الحميم ، ثم أنأنه عنه أسباب الدراسة والعمل فانتهى هو إلى وظيفته المجهولة وبدأ الشاب حياة الكفاح والنجاح ، ولم تكن طبيعة محمد بمستطيعة أن تهضم هذا الفارق بينه وبين صديق الصبا دون أن تفرز الحقد والحسد ، وزاد سخيمته إهمال صديقه القديم له وزهده فى معاشرته ، وأجج من نيران غضبه عليه ما ترامى إلى سمعه من زيغ صديقه وعدم اكتراثه للأديان وإيمانه بالعلم وحده دون غيره. ولكن ذلك كله لم يستطع أن يمحو من صدره ولعاً تربى فى قلبه منذ الصغر باحسان شقيقة الطبيب الناكث الناجح الكافر ... ما كنه هذا الولع ؟ كانت الفتاة ـ إذا حرصنا على المجاملة ـ متوسطة الجمال وربما دلت بعض قسماتها على دمامة ، ولكنها كانت ممتلئة الجسم بضته ، مفصلة الثنيات خفيفة الروح ، فكان يسرى من مشهدها إلى صدره ما يشبه مس الكهرباء ، وكان يبقى فى أعصابه من أثر رؤيتها قلق وألم فاقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن صاحبة هذا الجسم البض حرية بأن تسكن قلبه وتطفئ نيرانه .

وكان المنتظر والحال هذه أن يتقدم إلى صديقه القديم طالباً يدها ، ولكنه توقع الرفض ورجحه نظراً للفارق بينهما وبين أسرتيهما ، وسلم بظنه تسليما دون مناقشة أو مراجعة أو اختبار ، فانقلب أشد حقداً على صاحبه وعلى الدنيا جميعاً ... وطارد الفتاة حتى أوقعها فى شباكه فكانا يختلسان اللقاء الحين بعد الحين ، وكانا يذهبان إلى الحدائق يطلبان غرة من الناس وهنالك يلف ذراعه بذراعها ويروى غلته بلمسها وتقبيلها ، ويعطيها فى مقابل ذلك وعوداً خلابة . ثم يعود ظافراً بإشباع عاطفته والانتقام من كبرياء صديقه القديم ...

يا لها من نذالة ! ... إنه يعبث بفتاة تصدقه الحب وتخلص له أيما إخلاص ... فلو أن نيته صدقت على الزواج منها لربما فاز ببغيته ، ولربما كان هذا الزواج خير علاج لحياته البائسة. ومن يعلم فلعله كان الآن أبا يتعزى بما يخلف فى الدنيا من أبناء يمدون خيط حياته القصير ويعيدون حياته الفانية

ومهما يكن من أمر فما عساه صانعاً ولم يبق له من العمر إلا أيام أو شهور ؟ ماذا هو فاعل بشهوره الباقية ؟ هل يركن إلى الراحة والدعة ؟ أم هل يطبع على عينيه فيستهتر ويتمادى فى غيه ؟ أم هل يستطيع أن يصلح فى شهور ما أفسده فى خمسة وثلاثين عاماً؟

ليس الانسان حراً فى الاختيار كما يتراءى له ، وقد كان محمد ـ على تفاهة حياته وقذارتها ـ يؤمن بالله وباليوم الآخر فبث إيمانه الخوف فى نفسه وجعله يشفق من عاقبة الموت فاختار سبيل الاصلاح . نعم قد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ذا بال ، ولكنه على كل حال لن يعدم طعم الراحة التى يثيب عليها الاجتهاد ...

إن الموت قريب وهو يحس بدنوه منه ساعة بعد ساعة، ولكن رسوخ هذه الحقيقة فى نفسه جمع شتاتها وقوى جنانها وملأه شجاعة واستهتارا بالمخاوف، مخاوف الدنيا جميعا، وممن يخاف بعد اليوم؟ بل كيف يخاف شيئا ؟ لقد كان حب الحياة مبعث مخاوفه جميعا، فلما صار حبا ضائعا لا فائدة فيه انحلت عقدة مخاوفه وانطلق من إساره حراً طليقا لا ينوء صدره بشىء من تكاليف الحياة ...

كم كان يخاف الرجال — أو بعض الرجال على الأصح — وكأنه يكتشف الآن فقط أنهم أناس مثله، وكم داس على الحق والكرامة فى سبيل مرضاتهم ! وكم ضيع من فرص فى الحياة ! . . . لا خوف بعد اليوم ... ولا مجاملة فى الحق ... ولا فر حيث يجب الكر . ولا إحجام حيث ينبغى الأقدام . كلا . كلا . لقد انقلبت المخاوف جميعها ألاعيب أطفال وسيشق طريقه فى الحياة غير هياب .

واستحال محمد افندى عبد القوى إنسانا غير الانسان الذى عرفه الناس ...

وكان أول ما صنع أن سحب من نقوده المودعة فى البريد خمسة جنيهات وذهب لتوه إلى المرأة ابنة المجوز المتوفاة وأعطاها إياها وهو يقول «هذه أمانة أمك ترد إليك» ووقف لحظة ذاهلا أمام الفرح الذى غمر قلب المرأة البائسة وفاض منه إلى أبنائها وشمل البيت جميعا فى ثوان سريعة، وشارك فيه وهو لا يدرى وخيل إليه أنه محدثه فأحس بسعادة طاهرة لم يخفق بمثلها قلبه من قبل ...

وألغى إجازته وعاد إلى وظيفته بعزم جديد، وحدث ما كان متوقعاً فوقع الصدام بينه وبين رئيسه وبينه وبين زملائه وجرت على لسانه كلمات لم تكن لتنتظر منه أبداً وكانت موقع الدهشة لدى الجميع، ذاد بها عن الكرامة وذم « الاغتياب » ورد بها المتحرشين وجعلته بطل ثورة غريبة حار الجميع فى تعليلها، ووجد الجو من حوله يتغير سريعاً وآنس من البعض ميلا إلى إبعاده أو تأديبه ولكن شيئاً واحداً لم ينازعه فيه إنسان وهو الاحترام الظاهر والمعاملة اللائقة، ورضى بذلك مغتبطاً ولم يبال ما تخفى الصدور أو ما تخبئ الحنايا

ترى أمن الحكمة أن يغضب القوم وهو على أبواب الأبدية ؟ ولكن ما حيلته وهم لا يرضون عن إنسان يعرف حقاً لانسانيته وكرامته، وهو على كل حال لا يعبأ بالناس فى سبيل مرضاة الله الذى هو على وشك المثول بين يديه ...

وإحسان ! ماذا هو صانع بها ؟ لقد ضيع الفرصة السانحة وترك شبابه يتسرب من بين يديه وهو غافل عنه بالاطمئنان إلى العمر المديد ... ومهما يكن فالأمر واضح لا لبس فيه، وليس عليه إلا أن يذهب إلى صديقه القديم ويطلب يدها فاذا رفض — وهو حتما سيرفض — عاد مطمئن الضمير ملقياً عن نفسه ما ينغصها من وخز الألم والتأنيب .. ولن يضير إحساناً اختفاؤه من حياتها لأن عدم الزواج من ميت ليس خسارة تذكر ...

وذهب إلى صديقه القديم وحادثه فى الأمر وانتظر الجواب الذى قدره، ولكن حدثت معجزة لم يقدرها مطلقاً ... فرحب به الشاب وقبل طلبه وشد على يده بحرارة ...

يا للعجب ! لقد كان أعمى حقاً، ولكن ما العمل الآن ؟ فقد غدا الزواج منها جريمة لا تغتفر لأن معناه أن يغادرها بعد حين قليل أرملة فى

عنفوان الشباب وربما ترك فى بطنها طفلا يتيما ...

ووجد نفسه فى حيرة ظلماء لا يهتدي فيها إلى مخرج، فقد قبل طالبه بالموافقة التامة وعلمت به احسان، ولا شك أنها تنتظر الآن بفرح عظيم الخطوات الختامية وهو لا يستطيع أن يتقدم ولا يدرى كيف يتقهقر ...

ولم يربدا فى النهاية من الافضاء إلى فتاته بأزمته النفسية بجميع تفاصيلها وباح لها بكل مخاوفه وأوهامه، وأصغت الفتاة إليه بقلب واع، ولكنها لم تجد من نفسها استعدادا لتصديقه أو موافقة على ظنونه وتقديراته، وأبت أن تسلم بما يسلم به قانطا، وحملته على عرض نفسه على مشاهير الأطباء، ولم تدعه يذهب وحده فذهبت معه ... وأكد الأطباء جميعا وجود الضغط ولكنهم سخروا من أوهامه وأجمعوا على أن لا خطر يهدده قبل الستين ... وابتسمت إحسان منبطة وابتسم محمد فى حيرة وارتياب، وظل على ارتيابه أياما ولكنه كان شديد الاستعداد للتأثر والايحاء فأخذت كلمة الثقات تمحو من نفسه المخاوف. ولكنه لم يعاوده شعور الطمأنينة إلى الحياة والنجاة من الموت إلا بعد أيام أخرى. فلما كرت ذهبت عنه حمى الخوف وعد نفسه مرة أخرى من الاحياء، وتأمل حياته ساعة فلم يتمالك أن يهتف من أعماق قلبه: ياعجبا ... لقد بعثت بعثا جديدا ...

لأنه مات — إذا جاز لنا أن نقول ذلك — ذليلا جبانا سارقا نذلا أعزب، ورد إلى الحياة كريما شجاعا أمينا شهما متزوجا — فياللعجب! هل يستطيع الموت أن يخلق جميع هذه المعجزات؟ لقد غابت عنه قديما لذة الفضيلة فكبر عليه فعل الخير وهالته الشجاعة وخال الاقدام عليها هلاكا ذريعا ... فأثبت له الموت بالتجربة الواقعة أن الفضيلة لذة سامية، وأن فعل الخير سعادة لا تعجز طالبه، وأن الشجاعة حياة كريمة لا هلاكا محتوما ...

ولا نحب أن نقدر محمدا بفوق ما يستحق فالحق أنه كانت تأتى عليه ساعات يخلو فيها إلى نفسه فيهمس حيران متأسفا: قد تزوجت وانتهيت ... وهجرت حياة الليل اللذيذة ... ولن أكون آمنا بعد اليوم فى وظيفتى ... ولكنها كانت أصواتا خافتة سرعان ما تغيب فى جلبة الحياة الجديدة ...

وليث يعجب لما صنع الموت منه. ويحسبه من الخوارق والمعجزات. ولما امتلأ صدره بالتعجب والتأمل رأى أن يشرك فى أفكاره صديقه الطبيب الذى لا يؤمن بغير العلم والمادة فقص عليه قصته وروى له ما فعلته فكرة الموت بجبانه، وأصغى إليه الطبيب بانتباه، فلما انتهى قال له بسخرية: « ويحك أتتوب عن نعيم الدنيا لدنو الموت منك؟ ... انظر إلى ... ألست تراني أواصل الليل بالنهار عملا واجتهادا وراء المجد والشهرة والنجاح؟ أفتعلم ما الذى أصنع لو اطلعت على الغيب وعلمت أن الموت منى قريب؟ ... لاشيء ... اخلد إلى الراحة والدعة واقضى ما بقى من حياتى بين الكاس والخدود! »

وضحك ضحكا عاليا متواصلا ثم قال بنفس اللهجة الساخرة:

« ولكن أتعلم متى أتوب حقا عن المهالك وأهب نفسى للعلم والفضيلة؟ .. إذا وجدت الخلود ممكنا فى هذه الدنيا » وأصغى إليه محمد فى صمت وجمود ... وازداد عجبا وتأملا ...

نجيب محفوظ

كرم

للكاتب الشاعر القصصي "بول بوجيه"

بقلم السيد كمال الحريري

المكان « باريس » والوقت عصر يوم من أوائل الربيع الباسم الطلق ، وزمر الغادين والرائحين تملأ شارع « ريفول » : وهو الشارع الذى ينتصب فى ساحته تمثال القديسة « جان دارك » وكان موج دافق متراكب من السيارات والعربات والدراجات لا يفتأ يتجدد ويتعالى دويه وهديره فيصم الآذان حتى لقد كان يعجز أمهر رجال الخفية والشرط عن تعقب أحد من الناس خلال هذه الزحمة الصاخبة العاجة من الناس والآلات

لهذا وحده اختار « جول به ليه » هذه الساحة والساعة موعداً للقاء حبيبته « إديل » . فكان هناك خلف دكان حلوانى يتظاهر بمراقبة قطع الحلوى بينما هو فى الحقيقة متجه النظر لزجاج الدكان يرقب من خلاله ظلال الوجوه وهى تتعاكس وتتحرك على صفحته . كان فى الخامسة والثلاثين دقيق معارف الوجه ، واسع إنسان العين ، مكفهر السحنة : تكشف شفتاه الرقيقتان اللتان يظلهما شارب أشقر ، عن أسنان بيضاء لامعة عجيبة ، وتنم هيئته وملبسه عن حياة غنى وبطالة ، ولكن صورة من الغموض والابهام ، كانت تنطبع على تقاطيع وجهه . ويشاهد الفتى من خلال الزجاج فتاة كانت ولا شك هى التى ينتظرها ، فترف ابتسامة غامضة على زاوية فمه . حتى إذا اقتربت الصبية منه ، أجال فى الشارع عينين حادتين نفاذتين أخذتا تنفضان جموع الناس ، وقد انطبع عليهما بريق من القلق والخوف لا يبررهما موقفه كعاشق قد يحتسب الرقباء والفضوليين.

كان أول ما لقى الفتاة المتأخرة بهذه الكلمة التى أودعها كل تخوفه ورعبه :

— لقد مضى علىّ عشرون دقيقة وأنا أنتظرك « يا أديل » ورجال الخفية ألا تحسبين لهم حساباً؟

ثم مشى العاشقان جنباً إلى جنب ، فقالت الفتاة فى انفعال :

— لا أستطيع أن أعمل وصيفة كما أمرتنى ، لأن سيدتي تكاد تشك فىّ ...ثم ... إذا كنت تظن أنى ما أزال خاضعة لك إنك إذاً لمغرور ... إنها المرة التاسعة التى أنقاد لك فيها ، ولكن هذا حسبي ... أفهمت ؟ حسبي هذا . قالت اديل هذا بغيظ وهياج ، حتى إن صوتها الصاخب وحركاتها العصبية أدخلت الرعب فى قلب اللص فقال :

— حتى أنت يافتاتى ونعيم قلبى ؟ ! قال ذلك فى تدليل وتحبب وقد رق صوته وانبسطت أسارير وجهه ، فاكتسب ذلك محياه وهيئته شيئاً من الجمال الذى خضعت لسلطانه « إديل »

لقد كانت تقاسيم وجه الفتاة الدقيقة الجميلة ، وطراز هندامها وزينتها تناقض كل المناقضة دور الشريكة الآثمة الذى كانت تقوم به مع هذا اللص العاشق ... ثم تندم الفتاة على الرفض الذى جهرت به أمام عشيقها منذ لحظة ، خصوصاً حين أبصرت انقلاب جفائه إلى رقة وإيناس ، فقال :

— نعم لقد عرانى منذ لحظة غضب طارئ ،

ولكني أحبك على كل حال . وسبب هذا الكلام الذى بدر منى إليك إنما هو الخوف من أن يقبض علينا رجال الشرطة ، ألا تعلمين أن ذلك كان لأجلك ؟ أترينى نسيت عزمنا على مغادرة هذا البلد بمجرد أن نستطيع ذلك؟ ألا تذكرين ماقصصته عليك من قبل عن آلامي وأشجانى ؟ ألا تحسين ما أنا فيه الآن من الضيق والسجن فى هذه الحياة المتشردة البغيضة؟! لقد كانت عنيفة جارحة ، تلك الكلمات التى جبهتنى بها منذ قليل . فقولى لى إنك نادمة عليها ، قولى ... وحين رأى اللص صمت الفتاة الطويل راح يلتمس يدها برفق ، ثم جذبها إلى صدره بضغطة لطيفة لذيذة أراد منها شل ارادة الفتاة وإلهاءها عن ثورتها عليه . وتلك حاسة سادسة يمتلكها بعض الرجال الذين يعرفون كيف يتجبون إلى قلوب النساء . ولقد كان هذا اللص العاشق يعلم بوحي هذه الحاسة أن هذه الفتاة البائسة إنما هى له بجملتها مهما ثر

لقد كانت تعبده هذه الفتاة ، فكان يستغل فيها هذا الوله لتحقيق أغراضه وتنفيذ جرائمه ، منذ اليوم الذى هجرت فيه عش الأمومة حتى هذا اليوم .

فى « إديل » كل معانى الصبا الذى ينم عليه وجهها البديع ومعارفها الوسيمة . لقد كانت بنتاً وحيدة لعائلة شريفة متوسطة الحال . مات والدها فى حومة القتال وهو يحمل رتبة ملازم ثان ، فاضطرت الصبية عقب وفاته إلى الاقتران بـ « مسيو بارون » وهو تاجر أقمشة شرس فظ ، لم ترزق منه ولدا لحسن الحظ . وحين اتصلت حبالها بهذا الشاب «جول مليه» لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه موظف فى أحد المصارف ، ولقد لفق لها الشاب حكاية لحياته جازت على عقل المسكينة فآمنت به ثم ... ثم أصبحت له خليلة بعد فترة من الزمن . وتبلغ حكاية اتصالها بهذا الشاب إلى مسامع زوجها (وكان المبلغ له هو نفس عاشقها) فيطردها التاجر من منزله . وبعد أيام ثمانية ينهى إليها «جول» عاشقها بأنه ارتكب خطيئة فى وظيفته طرد بسببها من مركزه . وعلى هذا فقد أدركت الفتاة أنها حيلة منه ، وأنه يريد إشراكها معه فى سلسلة من الجرائم والسرقات لا تتصل حلقاتها إلا بشريكة مثلها من الجنس اللطيف . ومن أصلح لهذا منها ؟! ولسوف يدرك القارئ طبيعة هذه الشركة ومرماها حين يعلم أن هذه المؤامرة التى دار الحديث حول تنفيذها بين العاشقين كما يأتى : لقد استخدمت إديل عند سيدة أمريكية اسمها « مس إديث » بوظيفة وصيفة ، وكان ذلك بشهادة كاذبة تحت اسم مستعار مزور . وإذن فلم تكن غاية هذا الموعد الذى ضربه لها العاشق اللص في شارع ريفول إلا الاستعلام منها عن موضع صندوق الجواهر التى اعتزم تلك الليلة على اختطافها من سيدتها الأميركية. ولقد مرت على شفة الشاب بسمة الفوز حين بدأت إديل تتكلم وتقول :

— لو لم تكن ياجول سيء الاعتقاد باخلاصى وحبى لما شككت بكلماتى الموجهة إليك منذ هنيهة، إنك لتتسخط على حياة الاجرام والتشرد التى تحياها ولكن من يمنعنا من مبارحة هذا البلد منذ الغد ؟ أبداً لن يعلم أحد بحقيقة حالنا . ثم إنك ستعيش من العمل الحلال ، وسأشتغل أنا معك أيضاً .

وقاطعها اللص :

— إن هذا مستحيل في هذا الظرف على الأقل وأنت تفهمين جيداً وجه استحالته

— ولكن متى يكون ارتحالنا ؟

— حين نجمع لنا ثروة كافية ، وفى هذه الليلة سيكون ذلك إن نجحت إغارتنا على جواهر سيدتك. وبهذه المناسبة هل جربت على علبة الجواهر المفاتيح التى صنعناها ؟ وتجيب الفتاة :

— نعم لقد جربتها ياجول فنجحت كل النجاح

— وهل أنت مطمئنة إلى أن العقد الثمين اللؤلؤي موجود فى العلبة وأن سيدتك لن تتقلده هذا المساء ؟

— بالطبع لأنها ستتغدى في « نوى » عند مدرستها القديمة وستعودنى معها وعندى أن الوقت الملائم لدخول الفندق هو الثامنة مساء أو الثامنة والربع . قال اللص العاشق :

— لقد فهمت ، سأكون فى الثامنة عند باب فندق « بيوزيل » الذى يشرف على شارع « سانت هونوره » ولئن سألنى سائل عن وجهتي لأقولن له إلى مدام « زيرلى » فقد بلغنى أنها تقطن شارع يتفرع عن شارع « ريفول » . لسوف أمر بأول ممر من الفندق عن يمينى ، ثم أصعد درجتين ، ثم أصل إلى الغرفة التى رقمها ٦٧ ، ستكون مفتوحة بالطبع ، وسألقى أمامها دهليزاً ثم ردهة صغيرة . إن علبة الجواهر فى خزانة غرفة النوم ، وقد وضعت أنت المفتاح تحت سجادة السرير ، أليس ما أقوله صحيحاً بالضبط ؟ قالت الفتاة :

— تماماً تماماً ، ثم أردفت بارتعاش :

— ولكن عدنى أنك إذا لقيت أحداً من عاملات الفندق ستبارح الفندق بعذر تنتحله ! ثم قالت « إديل » فى همس :

— لست أطيق أن أكون مساعدة لك فى جريمة قتل ، إن ذلك هائل . إن ذلك ما لا أطيق .

قال « جول بليه » :

— ثقى أن ذلك لن يحدث أبداً ، لأن كل شىء سيجرى فى سكون وخفاء كما هى عادتنا فى السرقة ، وهبى أنى فوجئت بما لم يكن بالحسبان ، إنى سأدافع عن نفسى ، وسأختار أن يفصل رأسي على أن أذكر اسمك بسوء أو وشاية ، إلا إذا كنت أنت تذكرين اسمى فى مثل هذه الظروف . أجيبي أتذكرين اسمى ؟

— أبداً مطلقاً . قالتها وهى ترمقه بنظرة فيها الاخلاص والعتب ، فسرى عن نفس الشاب لهذا الاحتجاج الذي عبر عنه صوتها ومنظرها ، وحين أدرك اللص أن هذه المحاورة قد يكون من أثرها إن هى طالت أن تنبه مخاوف شريكته ثانية ، فقد قال ،

— ستكون هذه آخر محاولة نحاولها ، فتشجعى يا حبيبتى وهاتى لى لثمة من شفتك الحلوة . قال هذا ثم قادها إلى جهة كنيسة « سانت روش » فى زقاق ضيق خال من المارة . هناك جذبها إلى صدره وضمها بين ذراعيه ضمة عنيفة حارة ... ثم ... ثم تلاقت الشفاه ... وشعرت الصبية وهى تجوز شارع « هونوريه » عقب هذه الثواني اللذيذة من الضم والعناق ، بدبيب هذا الحب الطاغى يجرى فى عروقها فيجعل منها دائماً آلة صماء في يد هذا العاشق اللص الجميل

* * *

لم تكد « إديل » تدخل فندق « بيوزيل »

وتضع قبعتها عن رأسها حتى رن فى مسمعها جرس غرفة سيدتها ، يدعوها فرددت فى انزعاج وهى تتوجه لغرفة سيدتها :

— الساعة الآن السادسة إلا ربعاً ، وسيدتى من عادتها لبس ثيابها فى السادسة والنصف ، أترى بدا لها فى الذهاب فغيرت رأيها ؟ ! أعنى يارب ...

كانت «مس إديث» مستلقية على كرسى طويل فى غرفة الفندق وكان كل مايحيط بالسيدة من متاع وأثاث يحمل طابع اللطف والرقة والكرم : هى امرأة فى الخمسين من عمرها شقراء تضرب شقرتها إلى حمرة داكنة ذات عينين سمراوين ملتمعتين ، ووجه لطيف التكوين يصطبغ بصبغة زهرة حائلة ذاوية . ولسبب يعود إلى مزاجها الصريح وطبعها البرئ من التكلف والرذيلة ، كانت « مس إديث » تحب أن تطبع كل من يحيط بها من الخدم والوصائف على غرارها فى العوائد والمسلك . فكان يكفيها من وصيفاتها الطيبة والاستقامة كي يتقربن إلى قلبها وينزلن من نفسها منزلة الأبناء . انجذب قلب « مس إديث » لوصيفتها « اديل » منذ غياب وصيفتها القديمة الألمانية تلك التى انطلقت إلى أهلها عقب برقية مستعجلة تلقتها من أمها المريضة . وكى تترك السيدة « إديث » لوصيفتها الألمانية فرصة سانحة للاعتناء بأمها قررت الاستعاضة عنها بغيرها خلال هذه المدة ، فشاءت الصدفة أن تكون بديلتها فتاتنا « اديل » تحت اسم مستعار مزور بشهادة ملفقة . وكان أول ما بدرت به السيدة « إديل » أن قالت لها :

— إن لى ثقة كبري بالانجذاب أو النفور اللذين تحدثهما لى رؤيتى الشخص أول مرة ، وعن هذا الانجذاب أوالنفور أصدر فى معاملتى لوصيفاتى « ياإديل » . لم يكد يمضى على اديل ثلاثة أشهر عند « مس اديث » حتى عزمت هذه الأخيرة حين نزلت من نفسها الوصيفة منزلاً حسناً ، أن تعرض عليها السفر معها إلى أمريكا مع سلفتها الألمانية . ولكن شيئاً واحداً كان يؤلم قلب هذه المرأة الطيبة ، فى كل مرة كانت تلقى اديل الزائفة : كيف تطلب منها أن تكون لها وصيفة فى الدرجة الثانية بعد تلك الألمانية الغائبة ؟ أى وسيلة ستتخذها كيلا تؤلم نفسها وتجرح شعورها ، بينما رسائل تلك تترى إليها بالقدوم ؟ إنها لتعلم من حب « اديل » لها وتفانيها فى خدمتها مالا تستجيز لنفسها معه أن تفاتحها بهذا الموضوع . على أن « مس اديث » لم تكن مخدوعة ، فان « اديل » كانت تبادلها حباً بحب واخلاصاً باخلاص . ولم يكن هذا التمرد والتردد اللذان أبدتهما « اديل » لعاشقها إلا أثراً لما يعتلج فى جوانحها ويثور فى قرارة ضميرها من الندم على ما هى مقدمة عليه من خيانة سيدتها المحسنة الطيبة الكريمة . وقبيل أن يرن الجرس لاستدعائها خطر لها أنه يمكنها أن تنبه سيدتها إلى ما قد تتعرض له من الخطر هذه الليلة . لكن رنين الجرس سمعها وأزعجها ، أيكون مشروعها الأثيم قد أحبط واتصل خبره بسيدتها ، وهى الآن تريد من استدعائها أن تقبض عليها وتسلمها ليد العدالة ؟! كل ذلك جال بخاطر الشريكة المسكينة ، وهى تسرع الخطا إلى غرفة سيدتها التى بادرتها بهذه الكلمة :

— إنى لن أبرح الفندق هذه الليلة يا «اديل» لأن مدام «رنود» (وهى المدرسة التى قضت عندها

مس أديث عامين من حياتها) أبرقت إليّ تعلمنى بمرضها، وأنا نفسى أحس بشئ من الوعكة والضعف

لم تجب « اديل » على كلام سيدتها الاميركية ، لأن مشهداً هائلاً كان يتمثل فى خيالها تلك اللحظة لقد فتح الباب الذى يواجه باب غرفة سيدتها وبرز منه خليلها « جول بيه » وهو يعتقد أن غرفة سيدتها فارغة كما هو متفق. وإذن فإن «مس أديث» ستسمع الضجة، وسترى كل شيء وحينئذ؟ وحينئذ إما أن تساعد « اديل » الفرصة فتنبه سيدتها لخطر حبيبها فتكون قد قضت عليه، أو أنه سيفوز فيقتل سيدتها الكريمة . فى ظرف ساعتين ، سيكون هذا المشهد حقيقة راهنة . وهنا ترتجف أوصالها وتشعر بقلبها يميد ، وتشاهد الاميركية اصفرارها وارتجافها واضطرابها ، فتقول في قلق

— ولكن ما بك يا « اديل » أتراك مريضة ؟

ثم تنهض من كرسيها الطويل وتتجه إلى وصيفتها ولكن هذه توقفها باشارة من يدها وتقول

— لا شيء يا سيدتى إنه دوار بسيط يعرض لى دائماً وقد انصرف عنى الآن

— ولكنى أشاهد حالاً غريبة تأخذك منذ أيام ! أيكون أحد قد ساءك أو آذاك ؟ أتكون خدمتى لا تعجبك وترهقك ؟ قالت هذا بصوت تسيل نبراته حناناً وتحبباً ، ثم أردفت تقول :

— لئن كان هذا ، فإنى جد آسفة على ما فرط وخصوصاً أنى من السرور بك والارتياح لخدمتك وإخلاصك ، بحيث يقوم بنفسى أن أعرض عليك أمراً : لقد قلت لى سابقاً إن ذويك، ليس لهم أحد غيرك وغير شقيقتك، أفتعتقدين أنهم يرضون بذهابك معى إلى أمريكا ؟

— إلى أمريكا ؟ ! (رددتها شريكة اللص فى دهشة) تريد سيدتى ...

— أن آخذك معى إلى أمريكا . ثم تابعت « مس أديث » كلامها فقالت

— غير أن هناك مشقة احتمالها يسير عليك ، وهي التى أتردد منذ طويل فى الإفضاء بها إليك . فقولى لى الآن فى صراحة وجلاء ، ألست واثقة من حبى لك وإيثارى مصلحتك وخيرك ؟

— أواه يا سيدتى ، وهل أشك فى ذلك وأنت من أعطف الناس علىّ وأحسنهم معاملة وألينهم كلمة؟!

— إنك لتستأهلين منى هذا وأكثر ، وإلا فماذا كان يحدث لى لو أنك كنت بعيدة عنى هذه الشهور؟! ثم عرا الاميركية شيء من الحيرة والحياء، فاستأنفت تقول :

— وأظنك تدركين أنه لا يمكن العيش سنين عدة مع وصيفة أمينة كوصيفتى السابقة ، دون أن يتعلق القلب بها ، كما أظنك تقرينى على أنى لن أستطيع التخلى عنها ولا سيما أن رسائلها تنبئ من يوم لآخر بمجيئها ... نعم إنها هرمة محطمة تحتاج هى نفسها إلى وصيفة تعينها ... وسيكون شديداً علىك أن تكون هي الأولى وتكونى أنت الثانية ... ولكن إذا سلمت إليك رأس كل شهر نفس الراتب المعتاد ، ووعدتك بأنك ستخلفين يوماً هذه العجوز فى خدمتى ، أتراك ترضين بهذا ؟

لقد كان فى هذا النوع من التوسل الذى تبديه هذه المرأة المترية النبيلة أمام خادمتها كرم ونبل يثيران القلب ويستفزان الإعجاب والاكبار . نعم إنها كلمة طيبة لا غير. ولكنها على ذلك تكشف عن كنز غنى من حساسية دقيقة وشعور إنسانى رهيف وهنا شعرت اديل رغم موت ضميرها بمرض

الجريمة والانحطاط — بهزة من الندم طالما أحست بها، إذ هى تدور من قطب هـذه المرأة الصالحة الطيبة حول محور من لطف وكرم وحساسية . ولكن هذه الهزة تستحيل الآن وهى تسمع كلماتها الطيبة إلى زلزلة هائلة من النـدم ووخز الضمير : زلزلت أعشار قلبها وحنايا نفسها فمادت أى ميدان . وتنظر الفتاة حائرة إلى هـذه المرأة الضعيفة الطيبة الحنون التى اعتزمت هى أن تضحى بها بعد دقائق على مذبح خيانتها وحبها الآثم ، فتفيض عيناها من الدمع وتروح تغمغم :

— إنك يا سيدتى رمز الطيبة وعنوان الكرم؛ وإن لسانى لا يقوم بشكرك على عنايتك بى وسهرك علىّ . ليس شئ فى الدنيا أحب إلىّ من خدمتك فكيف تظنين أنى سأستاء إن قدّمت علىّ وصيفتك السابقة ؟ سواء لدى أكنت الأولى أم الثانية فى خدمتك . حسبى أن أكون بجانبك ، ولا يهمنى شىء بعد ذلك ، ولـكن ... وتقاطعها الأميركية :

— ولـكن ينبغى لك ألا تعقدى أمراً دون استشارة أهلك . وعلى ذكر أهلك أقول إن اليوم عيد ميلاد أمك القديسة « أميل » وتذكرت « إديل » فى جهد أن ذلك الاسم الخيالى الذى لفّقته « لمس إديث » حين استخدمت عندها إنما كان من ابتكار خيالها وكذبها. أما « مس إديث » فقد مضت فى حديثها تقول بلهجة حنون وابتسامة عطوف :

— لماذا لم تنبئينى بهذا ؟ إذن لـكنت سمحت لك بقضاء يومين بجانب أمك ، ومع هذا فلا تأسى ولا تأسنى ، فما زال لديك وقت متسع إن سافرت من الآن ، فليست « كره نه ل » بعيدة عن هنا كثيراً، ثم إني لست بحاجة إليك حتى الحادية عشرة غداً . إنما قولى لى هل أنت مغتبطة سعيدة ؟ قالت الوصيفة فى خفوت لم يبلغ مسمع سيدتها إلا بجهد :

— أواه يا سيدتى ، إنى جد مغتبطة ... ثم ولّت من الغرفة تكفكف دمعة حارة انحدرت على خدها

وقالت : « مس اديت » لنفسها بعد إذ غادرتها وصيفتها

— كم هن طيبات القلب بنات الشعب ؟ ! أنا واثقة بأن حزنها كان سببه حرمانها من ذكرى عيد والدتها

* * *

ومضت ساعتان على ذلك ، وكادت تدق الساعة الثامنة و « أديل » ما برحت محتبسة فى غرفتها ملتزمة كرسيها الذى انحطت عليه عقيب خروجها من غرفة سيدتها ... وفى غمرة من اضطراب نفسها وتبكيت ضميرها وتناقض عواطفها وشعورها راح يعتادها من جديد شعور الاعتراف بجميل سيدتها وكريم عطفها أقوى مما كان يعتادها من قبل . حتى لقد كان واجبه عندها فى تلك اللحظة يفضل حياتها وحياة حبيبها ومباهجها معه .. وتكاد تأزف الساعة الرهيبة المخجلة : ساعة قدوم حبيبها اللص ، فتنتابها لذلك حمى الخوف من الافتضاح بالاضافة إلى شعور الندم والتبكيت ، ترى ما ذا تصنع ؟ فى أى مكان هو « جول بليه » الآن ؟ أتنتظره على رصيف

كلة : لا ، لا ، ثم ألقت بهذا التصميم وجه الحائط ومضت لحظة فاذا بها تقول فى خفوت : ولكن ! إذا ! واستيقظ فيها من جديد قلب المرأة الشريفة « البورجوازية » فاذا بضميرها يبكتها من جديد ، وإذا بها تزفر وتقول : كم سيكون ذلك فظيعاً شنيعاً إن أنا لزمت جانب الصمت . ثم تقول بصوت مطمئن واضح :

— إن ما سأعمله هو جدٌ صائب وشريف ... وقامت لساعتها خافقة الجوانح مرتعدة مضطربة تقتحم غرفة سيدتها في سرعة كي لا تترك لنفسها وقتاً للتفكير وموازنة الآراء ... بهذا العزم والصورة نقرت على باب سيدتها . يا لله ! كم هو رائق حلو ذلك الصوت الذى انبعث إلى أذنيها من الغرفة قائلاً : أدخلى !

كانت مس « إديث » ما تزال مستلقية على كرسيها وبجانبها بقية من طعام كانت تتناوله . فحين رأت وصيفتها بهذا القلق والارتباك قالت لها بدهشة:

— أو قد عدت ثانية يا « إديل » ولكن ماذا حدث ؟

— حدث أنى خدعتك وغررت بك ياسيدتى وإنى لست إلا وصيفة زائفة هى خليلة لص فاجر مجرم سينتهك حرمة منزلك بعد قليل . حدث أنى شريكته قد زورت مفتاحاً لاستلاب ما تحتوى علبة جواهرك ، وهذا المفتاح فى جيب عشيقى الآثم ... حدث أنى ... بت لا أستطيع احتمال تنفيذ هذه الجريمة الشنعاء ضد الشخص الكريم الملائكى الذى عاملنى ويعاملنى معاملة أم رءوم وأخت حنونة ...

ونهضت فى هذه اللحظة «مس إديث» بينما أخذت « إديل » تكلمها وتقول :

— ليس فىّ ما تخشينه على نفسك ياسيدتى .. ولكن ... جول ليس بوسعى أن أسلمه للشرط ... كلا لست مستطيعة ذلك أبداً ... وما عليك ياسيدتي لملافاة هذا الخطر الذى سيحدث بعد دقائق إلا أن تقفلى الباب من الداخل ... حتى إذا أراد الدخول عليك تحتم عليه أن يدفع مصراعى الباب ... وحينئذ ... تتكلمين بصوت مرتفع مع نفسك فيفهم أنك لم تبارحى الغرفة هذا المساء ... فيغادر الفندق دون أن يحدث أمر فظيع ... أما فى حالة عدم خروجه فإنك تستطيعين النجاة إلى غرفة ثانية وهناك تطلبين النجدة والغوث ... ابق مكانك أنت ودعينى أنا أبادر إلى العمل ... وهنا يعقب كلامها عملها فأهرعت « ادبل » إلى باب البهو وأغلقته ثم أدارت المفتاح فى قفله مرتين ، ثم أسقطت عليه المزلاج الداخلى . وكذلك وبنفس العجلة عملت فى غرفة النوم ما عملته فى البهو ، ثم عادت إلى سيدتها الأميركية وكانت هذه قد سمرت بمكانها كالمشلولة أمام هذا المشهد المرعب السريع الصامت . وبينما كانت المرأتان منتصبتين الواحدة أمام الأخرى ، وقبل أن تستعيدا شيئاً من حقيقة الموقف المتأزم الفاجئ إذا بضجة تنبعث من البهو فتهز أدق عصب من أعصاب المرأتين ثم تبدو ذراع تدير زر باب البهو ولكن المقاومة غير المنتظرة التى وجدها « جول بليه » من القفل ، أدهشته وصعقته فأخذ يحرك الباب بشىء من الحذر . . . صرخت « اديل » متوسلة ضارعة

كلمة : لا ، لا ، ثم ألقت بهذا التصميم وجه الحائط ومضت لحظة فاذا بها تقول فى خفوت : ولكن ! إذا ! واستيقظ فيها من جديد قلب المرأة الشريفة « البورجوازية » فاذا بضميرها يبكتها من جديد ، وإذا بها تزفر وتقول : كم سيكون ذلك فظيعاً شنيعاً إن أنا لزمت جانب الصمت . ثم تقول بصوت مطمئن واضح :

— إن ما سأعمله هو جدُّ صائب وشريف ... وقامت لساعتها خافقة الجوانح مرتعدة مضطربة تقتحم غرفة سيدتها في سرعة كي لا تترك لنفسها وقتاً للتفكير وموازنة الآراء ... بهذا العزم والصورة نقرت على باب سيدتها . يا لله ! كم هو رائق حلو ذلك الصوت الذى انبعث إلى أذنيها من الغرفة قائلاً : أدخلى !

كانت مس « إديث » ما تزال مستلقية على كرسيها وبجانبها بقية من طعام كانت تتناوله . فحين رأت وصيفتها بهذا القلق والارتباك قالت لها بدهشة :

— أو قد عدت ثانية يا « إديل » ولكن ماذا حدث ؟

— حدث أنى خدعتك وغرَّرت بك ياسيدتى وإنى لست إلا وصيفة زائفة هى خليلة لص فاجر مجرم سيتهك حرمة منزلك بعد قليل . حدث أنى شريكته قد زورت مفتاحاً لاستلاب ما تحتوى علبة جواهرك ، وهذا المفتاح فى جيب عشيق الآثم ... حدث أنى ... بت لا أستطيع احتمال تنفيذ هذه الجريمة الشنعاء ضد الشخص الكريم الملائكى الذى عاملنى ويعاملنى معاملة أم رءوم وأخت حنونة ...

ونهضت فى هذه اللحظة «مس إديث» بينما أخذت « إديل » تكلمها وتقول :

— ليس فىَّ ما تخشينه على نفسك ياسيدتى .. ولكن ... جول ليس بوسعى أن أسلمه للشرط ... كلا لست مستطيعة ذلك أبداً ... وما عليك ياسيدتي للافاة هذا الخطر الذى سيحدث بعد دقائق إلا أن تقفلى الباب من الداخل ... حتى إذا أراد الدخول عليك تحتم عليه أن يدفع مصراعى الباب ... وحينئذ ... تتكلمين بصوت مرتفع مع نفسك فيفهم أنك لم تبارحى الغرفة هذا المساء ... فيغادر الفندق دون أن يحدث أمر فظيع ... أما فى حالة عدم خروجه فإنك تستطيعين النجاة إلى غرفة ثانية وهناك تطلبين النجدة والغوث ... ابق مكانك أنت ودعينى أنا أبادر إلى العمل ... وهنا يعقب كلامها عملها فأهرعت « اديل » إلى باب البهو وأغلقته ثم أدارت المفتاح فى قفله مرتين ، ثم أسقطت عليه المزلاج الداخلى . وكذلك وبنفس العجلة عملت فى غرفة النوم ما عملته فى البهو ، ثم عادت إلى سيدتها الأميركية وكانت هذه قد سمرت بمكانها كالمشلولة أمام هذا المشهد المرعب السريع الصامت . وبينما كانت المرأتان منتصبتين الواحدة أمام الأخرى ، وقبل أن تستعيدا شيئاً من حقيقة الموقف المتأزم الفاجئ إذا بضجة تنبعث من البهو فتهز أدق عصب من أعصاب المرأتين ثم تبدو ذراع تدير زر باب البهو ولكن المقاومة غير المنتظرة التى وجدها « جول بليه » من القفل ، أدهشته وصعقته فأخذ يحرك الباب بشيء من الحذر . . . صرخت « اديل » متوسلة ضارعة

— تكلمى بحقك ياسيدتى ! فصاحت مس أديت بصوت هادئ لارعشة فيه ولا اضطراب

— ولكن من هناك ؟ ! ثم مشت بحأش رابط إلى مدخل البهو وهى تقول : إذا لم ترد على فسأنبه الخدم بدق الجرس ... قالت هذا وأرهفت أذنيها ، فإذا بها تسمع زفرة حبيسة انطلقت من صدر « جول » لهذه الخيبة والفشل الفاجئين ، ثم تجاسرت الأميركية فوضعت يدها على مقبض الباب وقد تهيأت لفتحه . ولكن فى هذه اللحظة سمعت خفق نعل « جول » يضمحل ذاهباً شيئاً فشيئاً ، ففهمت أن اللص يبتعد ويلوذ بالفرار . ثم تكلمت فقالت :

— لقد انطلق صاحبك يا « إديل » وسأدق الآن الجرس كى أشعر الخدم وأهل الفندق أن أحداً من اللصوص أراد دخول غرفتى على ، وبأنى فى حاجة إلى حارس أضعه في البهو بقية الليل . ثم تناولت يد الصبية وقالت لها :

— أما أنت فأريد منك ألا تبرحينى كى تقصى على قصة حياتك لأنى أبغى معرفة كل شيء

* * *

فى صبيحة غد هذه الحادثة أفاقت « مس إديت » متأخرة عن موعد استيقاظها ، وكان الاعتراف الباكى الحزين الذى اعترفت به الوصيفة أمامها ، قد حرك أوتار قلبها النبيل فقالت لها فى حنان :

— لقد أنقذتنى من ذلك اللص صاحبك ، وأنا بدورى أريد استنقاذك منه واستخلاصك لنفسى ... لسوف ترافقينى إلى أمريكا ، ولسوف تغيرين اسمك ، وهناك تعيشين فى كنفى دون أن يستطيع لحاقك أبداً . فكان جواب « إديل » على هذه المكرمة والشهامة دموعا حرارا هنا وقُبل مخلصة حارة لقدم هذه الانسانة الملائكية التى تعرض عليها — وهى فى هوة سقوطها وتدهورها — السلام والحب والرعاية . وهل بعد هذا كرم ومروءة وحنان ؟ ولقد تم الاتفاق بين السيدة ووصيفتها على أن تلزم « إديل » الفندق حتى قدوم الوصيفة الألمانية ، حينئذ تسبق سيدتها إلى « ليفربول » حيث تنتظرها هناك للابحار إلى أميركا ...

ولكن كم كانت دهشة « مس إديت » عظيمة حين أفاقت فى اليوم الثانى وراحت تغمز عبثاً زر الكهرباء مستدعية « اديل » دون أن يرد عليها أحد .. أخيراً عزمت الأميركية على استدعاء وصيفة الطابق الآخر كى تستعلمها عن غياب « إديل » ولكن هذه جاءت لتخبرها أن « إديل » غير موجودة فى الغرفة وأن رسالة معنونة باسم الأميركية قد وجدتها على طاولة « إديل » رسالة ؟ كلا . إن هى إلا سطور مكتوبة بيد مرتعشة هذه هى :

« إغفرى لى يا سيدتى بحقك ... إنى لأشعر بعجزى عن فراق ... هذا الرجل الذى لن أستطيع العيش بدونه ... نعم لقد قنعت البارحة بمقترحك لأنك ملكت قلبى واستوليت على إرادتى بلطفك وكرمك ... أما الآن ... فأنا والهفتاه ، جدُّ أسيفة على حبه الذى سأحرم منه إلى الأبد إن لحقت بك . أرأيت ياسيدتى أنى لست من الطيبة والصلاح بحيث كنت تتصورين ... نعم لست طيبة ...

وسأكون ... على ما يحبه مني لا أنحرف عن رضاه ولا أسير إلا على إرادته ، لأن هذه قسمتي ... إني حين أحاول حياة أخرى بعيدة ... عنه ، أشعر بأن برودة الموت تجثم على صدري وتمشي في عروقي ... وداعاً يا سيدتي ... يا سيدتي الكريمة ، إني أتوسل إليك أن تحزمي أمتعتي في طرد وتبقيه عبد البواب باسمي ... وأنا واثقة كل الثقة بأنك لن تحاولي إبقائي ولا تسليمي للعدالة حين آتي لآخذ الطرد... ولكن ... أواه كم أنا وقحة حتى أطلب هذا أيضاً. لكن وضعت ياسيدتي صورتك العزيزة المحبوبة بين... أمتعتي لتكونين هذه المرة ألطف إنسانة وأكرم امرأة عند خادمتك المقرة بجميلك وإحسانك إلى الأبد »

خادمتك : « إديل »

.... لقد فعلت « مس إديت » ما طلبته منها وصيفتها الآبقة ، على رغم أن بعض فقراء الفضائل يرون فيه خروجاً عن الطبع الانساني اللئيم . نعم، ولم تكتف بالصورة وحدها ، بل وضعت بجانبها مظروفاً يحتوي على خمسة آلاف فرنك و كتبت في ورقة فيه:

« من « مس إديت » الأميركية إلى وصيفتها الأمينة « إديل » ذكرى محبتها وإخلاصها في خدمتي سنتين . وكان في آخر الرسالة هذا القول المعروف : أما وقد شئت فراقي يابنية فاستعيني بهذه الصبابة من المال على العيش مع صاحبك بشرف وحلال »

« إديت »

كمال الحريري

الملابس القطنية الخفيفة
هي
ملابس الصيف القائظ
تشكيلات جميلة رائعة . ومنسوجات مختلفة مغرية
وألوان ساحرة أخاذة
تقدمها اليكم
شركة مصر للغزل والنسج
إحدى مؤسسات بنك مصر

الأول والأخير

للكاتب جون جالزورثي

بقلم الأديب سامي الناقص

« يعد برنارد شو وسير جيمس ماثيو باري وجون ملنجتون سنج وجون جالزورثي أحسن كتاب الدراما في الأدب الانجليزي الحديث. وقد تعلم جالزورثي في هارو واكسفورد وكثير من الأدباء الانجليز درس القانون واشتغل به . ولكن هذه المهنة لم ترقه فتركها واشتغل بالأدب فكتب أولا قصصاً بين طويلة وقصيرة ثم تحول إلى كتابة المسرحيات فكان أول ما كتبه مسرحية (الصندوق الفضي) ثم كتب بعد ذلك أكثر من عشرين قصة تمثيلية كان أحسنها جميعاً مسرحيات البهجة والنزاع والعدالة والحمامة والأوباش والأمانات وكل مسرحيات جالزورثي تعالج مشاكل اجتماعية في البيئة الانجليزية . وهو يعرض لنا المشكلة في مسرحيته في قوة كشكل كتاب الدراما معتمداً في ذلك على الحوار الطبيعي وذكر التفاصيل الحقيقية مهما كانت مروعة فيهيج بذلك شعور المتفرجين . وهو يكثر من استخدام علامات التعجب لكي يترك فهم ما يراد منها إلى ذكاء المتفرجين . ومسرحياته كلها ناجحة لأنها وضعت على أساس مسرحي متين »

أشخاص الرواية

كيث دارانت مستشار ملكي
لارى دارانت أخوه
واندا

مناظر الرواية

المنظر الأول : في مكتب كيث
المنظر الثاني : في حجرة واندا بعد المنظر الأول بثلاثين ساعة
المنظر الثالث : في حجرة واندا بعد المنظر الثاني بشهرين

المنظر الأول

الساعة السادسة من إحدى أمسيات نوفمبر في غرفة مكتب كيث وهي حجرة كبيرة مغطاة بستائر كثيفة وليس بها إلا مصباح مكتب يسقط ضوءه على سجادة تركية وكتب موضوعة إلى جانب كرسي ذي مساند وطقم قهوة أزرق مذهب فتظهر كأنها واحة من النور أمام النار المشبوبة في الموقد

نرى كيث نائماً في كرسيه وقد انتعل حذاء تركيا أحمر وتدثر بثوب قديم من القطيفة الرمادية ، وهو أسمر الوجه حاد التقاطيع حليق اللحية وقد ابيض جزء من شعره الأسود ، إلا أن حاجبيه الكثيفين مازالا أسودين . يفتح الباب المغطى بالستائر والواقع في الجزء المظلم من الحجرة بهدوء حتى أن كيث لا يستيقظ . يدخل لارى دارانت ويقف بالباب لا يدري ماذا يفعل وهو شخص ضامر الجسم ذو وجه متعب بارز عظام الخد وعيون عميقة زرقاء وشعر ناعم أشعث ولكن وجهه ما يزال جميلا . يتحرك داخل الحجرة إلى جانب الحائط ثم يقف ثانية ساكنا ويتنهد وهو يلهث بصوت خافت فيصحو كيث فجأة ويتحرك في كرسيه

كيث — من ؟

لارى (بصوت جامد) — **إنه أنا لارى**

كيث (بين اليقظة والنوم) — **أدخل ! لقد كنت نائما**

(لا يلتفت إلى الباب وإنما ينظر إلى النار بعين يداعبها النعاس)

لارى (يتنفس بصوت مسموع)

كيث (يدير رأسه قليلا ناحية لارى) — **حسن يا لاري ، ماذا وراءك ؟**

لارى (يتقدم داخل الحجرة ولكنه يمشي مستنداً إلى الحائط خارج دائرة النور وكأنه لا يستطيع المشي دون الاستناد إليها)

كيث (يتفرس فيه) — **أأنت مريض ؟**

لارى (يقف جامداً مرة أخرى ويتنهد)

كيث (يقف موليا ظهره إلى النار ثم يتفرس في أخيه) — **ماذا حدث لك يا رجل ؟** (في حالة أقرب إلى الوحشية تولدت عن اضطراب أعصابه) **هل اقترفت جريمة قتل حين تقف مضطرباً هكذا كالسمكة ؟**

لارى (هامسا) — **نعم يا كيث**

كيث (بصوت يظهر فيه الكره الشديد) — يا إلهى ! سكران مرة أخرى ! (يتغير صوته بخوف مفاجئ) ما الذى أتى بك إلى هنا وأنت على هذه الحالة ؟ لقد أخبرتك — لو لم تكن أخى — ! تعال هنا ، ما الذى يؤلمك ؟ ماذا حدث يا لارى ؟

لارى (يندفع من جانب الحائط المظلم ثم يجلس على كرسى ذى مساند فى دائرة الضوء) — هذا صحيح

كيث (يتقدم إليه بسرعة ويحدق فى عينيه حيث يظهر فيهما تعجب مخيف — يتكلم بصوت منخفض يظهر فيه الغضب والحيرة) — ما هذا الهراء الذى تقوله ؟ (يذهب بسرعة ناحية الباب ويزيح الستائر جانباً ليتأكد من أنه مغلق ثم يعود إلى لارى فيراه منحنياً فوق النار) هيا يا لارى تمالك نفسك ولا تتركها للمبالغة ! ماذا تعنى بما قلت ؟

لارى (منفجراً فى صوت حاد) — الأمر كما قلت لك ، لقد قتلت رجلا

كيث (متمالكا نفسه بصوت بارد) — هدئ نفسك

لارى — (يرفع يديه ويعصر إحداهما بالأخرى)

كيث (يظهر عليه الخوف الشديد) — لماذا أتيت هنا وأخبرتنى بذلك ؟

لارى — ومن الذى أخبره غيرك يا كيث ؟ لقد أتيت لأسألك عما أفعله — أأسلم نفسى أم ماذا أفعل ؟

كيث — متى ؟ متى ؟ ماذا ؟

لارى — الليلة الماضية

كيث — يا إلهى ! كيف كان ذلك ؟ وأين ؟ من المستحسن أن تهدأ أولا ثم تخبرنى عن كل شىء من البداية . خذ ، إشرب هذه القهوة ، فانها تهدئ اضطرابك (يصب فنجانا من القهوة ويعطيه لارى)

لارى (يشرب القهوة كلها) — اضطرابى ! نعم ! هكذا كانت الحكاية يا كيث — كانت هناك فتاة

كيث — نساء ! دائماً نساء ، ومعك ! حسن ؟

لارى — هى ماسحة أحذية . مات والدها ولم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها وتركها وحيدة . وكان يعيش معها فى المنزل نغل (ولد زنا) فتزوجها أو ادعى ذلك . إنها جميلة جداً يا كيث . ثم تركها بعد أن أولدها طفلا فكادت تموت جوعاً ، فالتقطها آخر وعاش معها سنتين حتى رجع إليها ذلك الحيوان واضطرها إلى العيش معه وكان يضربها دائماً . ثم تركها ثانية حين لقيتها وكانت على استعداد للعيش مع أى إنسان (يتوقف ويمر يديه على شفتيه وهو ينظر إلى كيث ثم يتم حديثه متحدياً) وإنى لأقسم أنى لم أقابل امرأة أحلى ولا أصدق منها ، امرأة وهى لم تتجاوز العشرين ! ولما ذهبت إليها أمس كان ذلك الشيطان قد وجدها مرة أخرى فاندفع نحوى حيواناً كبيراً متوحشاً . أنظر ! (يلمس كدمة على جبهته) فأمسكت بعنقه القبيح ولما تركته —

(يسكت وتسقط يداه إلى جانبيه)

كيث — ماذا ؟

لارى (بصوت مختنق) — كان ميتا يا كيث . ولم أعرف إلا أخيرا أنها كانت قد تعلقت برقبته هى الاخرى لتساعدنى (يعصر يديه)

كيث (بصوت جاف) — ماذا فعلت بعد ذلك ؟

لارى — ج . . . جلسنا بجانب الجثة طويلا

كيث — حسن ؟

لارى — ثم حملتها على ظهرى ونزلت إلى الشارع

وهناك فى ركن شارع تحت قنطرة تركتها

كيث — كم يبعد عن المنزل ؟

لارى — خمسين ياردة تقريبا .

كيث — هل ... هل رآك أحد ؟

لارى — لا

كيث — متى كان ذلك ؟

لارى — الساعة الثالثة بعد منتصف الليل

كيث — وبعد ذلك ؟

لاري — عدت إليها

كيث — لماذا ... بالله ؟

لارى — كانت وحيدة خائفة وكذلك كنت أنا يا كيث

كيث — أين تسكن ؟

لارى — ٤٢ ميدان بورو ... حى سوهو

كيث — والقنطرة أين تكون ؟

لارى — فى ركن شارع جلوف

كيث — ياإلهى ! لقد قرأت عنها فى جرائد الصباح . وتحدثوا عن الجريمة فى (الكورتس) (يأخذ جريدة من كرسيه ويتصفحها ثم يقرأ) لقد تحدثوا عنها ثانية (وجدت جثة رجل هذا الصباح تحت قنطرة شارع جلوف ونستطيع من تلك الآثار التي حول رقبته أن نظن ظنا يقرب من اليقين أن هذه اللعبة القذرة لم تقف عند حد وقد سرق ما كان يحمله القتيل) ياإلهى (يلتفت فجأة) هل رأيت ما كتب؟ وهل كنت تحلم بذلك؟ أتفهم يالارى ؟ أكنت تحلم بذلك ؟

لارى (فى توق شديد) — آه لو كنت يا كيث !

كيث (يفعل يديه كما يفعل أخوه) — هل أخذت شيئا من ال ... الجثة ؟

لارى (يخرج مظروفا من جيبه) لقد سقط منه هذا أثناء الشجار .

كيث (ينتزعه منه ويقرأ) « باتريك والين » أكان هذا اسمه ؟ « نزل شيمون ، شارع فارتر ، لندن »

(ينحني جهة الموقد ويضع المظروف فى النار) لا ! إن هذا يجعلني ...(ينحني ثانية لينتزعه من النار) (ولكنه لايحرك يديه ثم فجأة يدفعه بقدمه بعيدا) لماذا بالله جئت إلى هنا وأخبرتني بذلك ؟ ألا تعرف أنني . . . أنني على وشك الانتقال إلى مقاعد القضاء ؟

لارى (ببساطة) — نعم ، ويجب عليك أن تعرف ماذا أفعل ، لم أكن أقصد قتله يا كيث ، إني أحب الفتاة ... أحبها . ماذا أفعل ؟

كيث — حب !

لارى (مندفعا) — حب!... هذا الخنزير القذر ! مليون من المخلوقات تموت كل يوم وليس فيهم واحد يستحق الموت أكثر منه . ولكن . . . ولكني أشعر به هنا (يلمس صدره عند مكان القلب) أشعر بشيء يقبض قلبي قبضا مخيفا يا كيث . ساعدني إن كنت تستطيع أيها المجوز . لعلي لم أكن خيّراً، ولكنني لم أوذ ذبابة إذا كنت أستطيع أن أقدم لها نفعا (يغطي وجهه بيديه)

كيث — تمالك نفسك يالارى ! دعنا نفكر للخروج من تلك الورطة . قلت إنه لم يرك أحد ؟

لارى — كان المكان مظلماً والليل ساكناً

كيث — متى تركت الفتاة بعد رجوعك إليها؟

لارى — فى الساعة السابعة تقريباً

كيث — إلى أين ذهبت ؟

لارى — إلى منزلي

كيث — شارع فتزروى ؟

لارى — نعم

كيث — وماذا فعلت بعد وصولك

لارى — جلست هناك — أفكر

كيث — ألم تغادر المنزل ؟

لارى — كلا

كيث — ألم تر الفتاة ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — ألا يمكن أن تشى بك ؟

لارى — لا ، مطلقاً

كيث — أو تسلم نفسها إذا اضطربت أعصابها ؟

لارى — كلا

كيث — من يعرف علاقتك بها ؟

لارى — لا أحد

كيث — لا أحد ؟

لارى — لا أعرف يا كيث من يكون قد عرف ذلك

كيث — هل رآك أحد وقت ذهابك إليها أمس أول مرة ؟

لارى — كلا فإنها تسكن الدور الأرضي ومفاتيح غرفتها معى

كيث — أعطنيها

لارى (يخرج مفتاحين من جيبه ويسلمهما لأخيه ثم يقف) — لا أستطيع أن أبتعد عنها !

كيث — ماذا ؟ فتاة كهذه ؟

لاري (مندفعا) — نعم فتاة كهذه

كيث (يحرك يديه ليؤثر في أخيه) — ماذا تحمل أيضاً مما يربطك بها ؟

لارى — لا شيء

كيث — ولا فى منزلك ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — صور أو رسائل ؟

لارى — لا شيء

كيث — أمتأكد أنت ؟

لارى — كل التأكد

كيث — ألم يرك أحد عند رجوعك إليها ؟

لارى (يهز رأسه)

كيث — ولا عند خروجك فى الصباح ؟ أظنك لا تستطيع التأكد من ذلك

لارى — أنا متأكد

كيث — إنك مجدود . اجلس يا رجل فيجب أن أفكر (يتجه إلى الموقد ويتكىء على رفه بيديه ثم يضع رأسه على يديه)

لارى (يطيع فيجلس)

كيث — هذا لا يليق . إنها وحشية

لارى (يتنهد) — نعم

كيث — هـذا الـ « والن » — أكان ذلك ظهوره الأول منذ اختفى ؟

لارى — نعم

كيث — كيف استطاع العثور عليها ؟

لارى — لا أعرف

كيث (بشدة) فى أى حالة من السكر كنت ؟

لارى — لم أكن سكران

كيث — ماذا شربت ؟

لارى — قليلا من الكلاديث (نوع من الخمور الفرنسية)

كيث — قلت إنك لم تكن تقصد قتله

لارى — يعلم الله ذلك

كيث — هذا شيء

لارى — لقد أصابنى عدة إصابات (يرفع يديه)

لم أكن أحسب أنى على هذه القوة

كيث — قلت إنها تعلقت برقبته ، ما أقبح ذلك !

لارى — كانت خائفة من أجلى

كيث — أتعنى أنها تحبك ؟

لارى (ببساطة) — نعم يا كيث

كيث (بوحشية) — أتستطيع امرأة مثل هذه أن تحب ؟

لاري (ثائراً) — يا إلهى ! أأنت شيطان متحجر ؟ ولم لا تحب ؟

كيث (جافا) — إننى أحاول أن أصل إلى الحقيقة. إذا كنت تريد مساعدتى فيجب أن أعرف كل شىء . ما الذى جعلك تظن أنها مغرمة بك ؟

لارى (بضحكة جانبية) — أوه ، أيها المحامى ! ألم تحتوك امرأة من قبل بين أحضانها

كيث — إنى أتكلم عن « الحب »

لارى (بشدة) — وأنا كذلك فقد قلت لك إنها تحبنى . ألم تلتقط كلباً ضالا من الشارع قط ؟ حسن إنها تحبنى حب الكلب الضال صاحبه الذى التقطه ، وكذلك أنا . لقد التقط كل منا الآخر . لم أشعر نحو أى امرأة بما أشعر به نحوها . إنها منقذتى

كيث (يهز كتفيه) — لماذا اخترت هذه القنطرة ؟

لارى — كانت أول مكان مظلم قابلنى

كيث — أكان يظهر على وجهه أنه قد خنق ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيث — أكان مشوها ؟

لارى — نعم

كيث — ألم تلاحظ أى علامات على ثيابه ؟

لارى — كلا ، لم ألاحظ

كيث — ولِمَ لا ؟

لارى (بصبر) لست مصنوعاً من حديد مثلك

ولم لا ؟ لو كنت أنت الذى قتلت !

كيث (ممسكا بيده) — قلت إنه كان مشوهاً ، فهل معرفته ممكنة ؟

لارى (متعبا) — لا أعرف

كيث — متى كانت تعيش معه فى المرة الأخيرة وأين ؟

لارى — أظنهما كانا يعيشان فى بمليكو

كيث — لا فى حى سوهو ؟

لارى — (يهز رأسه)

كيث — منذ متى سكنت سوهو ؟

لارى — منذ سنة تقريباً

كيث — وكانت تعيش هذه العيشة ؟

لارى — حتى قابلتنى

كيث — حتى قابلتك ؟ أتعتقد ؟

لاري (جافلا) — كيث !

كيث (يرفع يده ثانية) دائماً فى نفس المنزل ؟

لارى (ساكتا) — نعم

كيث — ما صناعته ؟ أهو مجرم معتاد الاجرام ؟

لارى — (يحنى رأسه)

كيث — أظنه يقضى معظم وقته فى الخارج

لادى — أظن ذلك

كيث — أتستطيع القول بأن رجال الشرطة يعرفونه

لارى — لم أسمع بذلك

كيث (يمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً ثم يقف أمام لارى ويقول) — إستمع إلى الآن يا لارى . عندما تخرج من هنا إذهب رأساً إلى منزلك وامكث هناك حتى آذن لك بالخروج . عدنى بذلك

لارى — أعدك

كيت — لن تخلف وعدك

لارى (فى إحدى ثوراته) — ذلك المتردد كالماء لا يتقدم غيره

كيت — تماماً . ولكن إذا كنت تريد مساعدتى فافعل كما أطلب منك فانى أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير فيما يجب عمله . أمعك نقود ؟

لاري — قليل جدا

كيت (عابساً) — نعم ، دائماً نقودك ضائعة . لو كنت مضطراً إلى الهجرة — لاعليك ، سأدبر أمر النقود

لارى (متواضعاً) — إنك طيب معى يا كيت . إنك دائماً طيب معى ، ولا أعرف لماذا ؟

كيت(متهكماً) — إنها حقوق الأخوة كما يحدث دائماً . أفكر فى نفسى وفى أسرتى . ولا يمكن أن ترضى نفسك بقتل رجل دون أن تجر وراءك الخراب . يا إلهى ! لقد صنعت منى شريكا لك فى جريمتك ... أنا ... المستشار الملكى الذى أقسم ليخدمن القانون ، والذي فى مدى سنة أو سنتين سيتولى محاكمة أمثالك ! يا إلهى ! لقد دفعت بنفسك فى مأزق يا لاري

لارى (يخرج من جيبه صندوقاً صغيراً) — يجدر بى أن أنتهى من هذه الحياة

كيت — أيها المجنون ؟ أعطنى هذا

لارى (بابتسامة غريبة) — كلا (يمسك قرصا بين أصبعيه السبابة والابهام) سحر أبيض يا كيت ! واحد فقط ... وليفعلوا بك ما يريدون دون أن تحس بهم . يبعد عنك كل شعور بالعذاب . إنه راحة كبرى ! ألا تأخذ واحداً لتحفظه معك ؟

كيت — هيا يا لارى ! سلمنى هذا

لارى (يعيد الصندوق إلى جيبه) — لن أسلمه لك ! إنك لم تقتل رجلاً ، أترى ؟ (يضحك تلك الضحكة الجنونية) أتذكر تلك المطرقة التى قذفتنى بها ونحن صغيران ؟ لقد كنت محظوظاً ومذاك . وكنت محظوظاً مرة أخرى فى نابلى فقد كدت أقتل حوذيًّا لضربه حصانه ضرباً مبرحاً . أما الآن ...! يا إلهى ! (يغطى وجهه)

كيت (يتأثر من أقواله فيذهب إليه ويضع يده على كتفه) — هيا يالارى ! كن شجاعاً !

لارى (ينظر إليه) — حسن يا كيت ، سأحاول

كيت — لا تترك منزلك ولا تشرب خمراً ولا تكلم أحداً وهدئ من روعك

لارى (يذهب إلى الباب) — لا تتركني مدة طويلة دون مساعدتك يا كيت

كيت — لا لا ! تشجع !

لارى — (يصل إلى الباب ثم يلتفت إلى أخيه ليقول شيئا لكن الكلمات تخونه فيذهب دون أن يتكلم)

كيت (يتجه إلى الموقد) الشجاعة ! يا إلهى ! إنى أنا الذى سيحتاج إليها !

(ستار)

المنظر الثانى

(حجرة واندا وهى بالدور الأرضى بحى سوهو الساعة الحادية عشرة تقريباً من الليلة التالية . لا يستطيع الناظر تمييز ما بالحجرة تماماً لأنها مضاءة بمصباح كهربائى واحد مغطى من جميع نواحيه . من جهة الشمال نار خامدة . وفى وسط الحائط الخلفى نافذة مغطاة بستار . وفى الجهة اليمنى باب الأثاث مكسو بغطاء من القماش وهو برغم رثاثته نظيف . بالحجرة أريكة بدون مساند خلفية أو جانبية وهى فى الوسط بين النافذة والموقد

(نرى واندا جالسة على هذه الأريكة محلقة فى الرماد المحترق وهى لا تلبس إلا قميص النوم يغطيه روب وقد انتعلت فى قدمها العارية حذاء خفيفا وقد شبكت يديها فوق

صدرها وأخذت تضغط بهما عليه . فجأة تتحرك فتنظر أمامها وتتسمع . يظهر فى عينيها المرتجفتين سلامة الطوية . وجهها أبيض باهت وشعرها الأسمر الباهت المقصوص معقوف جهة رقبتها العارية . عيناها السوداوان الخائفتان وشفتاها الورديتان الباهتتان تظهر وجهها وكأنه قناع أبيض ملون)

(خطوات شرطى منتظمة تسمع خارج الحجرة ثم تتلاشى فتذهب واندا فى خطوات خائفة إلى النافذة حيث تزيح أحد شقى الستارة فيدخل منها شعاع دقيق من النور ثم تفتح بقية الستارة حتى يظهر خلالها شجرة كأنها ساحرة عجوز موجودة فى الميدان الذى يلى الشارع من الجهة الأخرى . تسمع الخطوات مرة أخرى وهى تقترب فترخى واندا الستائر وترجع ثانيـة ولـكن الخطوات تتلاشى . تقف واندا بين الأريكة والباب وتنظر إلى الأرض وكأنها تبحث عن شىء ثم ترتجف وتغطى عينيها . ترجع إلى الأريكة وتجلس كما كانت جالسة أولا لتحملق فى الرماد ، ومرة ثانية ترتجف لسماعها صوت فتح الباب الخارجى فتقوم مسرعة وتجرى ناحية الباب فتضغط الزر الكهربائى المجاور للباب فينطفئ النور ولـكنا نستطيع تمييزها وهى واقفة تنسم بجانب ستائر النافذة المظلمة بواسطة نار الموقد)

(يسمع صوت طرق خفيف على باب الغرفة فتقف مذعورة لا تستطيع التنفس ، يعاد الطرق ثم يسمع صوت مفتاح يدار فى القفل فيفارقها الذعر ، يفتح الباب ويدخل رجل يلبس ثيابا سوداء ومعطفا من الفرو)

واندا — (فى صوت متقطع من الفرح تشوبه نبرة أجنبية) — **أوه ! هذا أنت يا لارى ! لِمَ قرعت الباب ؟ قد أخفتنى . أدخل .** (تذهب إليـه فى سرعة وتحوط عنقه بذراعيها ثم تتراجع فجأة وتتكلم هامسة فى خوف) **أوه ! من تكون ؟**

كيت (فى صوت مختنق) — **أحد أصدقاء لارى فلا تخافى**

(تظل تتراجع حتى تصل إلى النافذة ، وعند ما يضىء كيت الغرفة تظهر واندا واقفة إلى جانب النافذة وقد أمسكت بالروب من فوق عنقها وظهرت على وجهها نظرة ذعر وكأنها فصلت من جثة ميت)

كيت (بلطف) — **يجب ألا تخافى فانى لم آت لأوذيك بل على العكس تماما** (يريها المفاتيح) **ألا ترين أن لارى لم يكن ليعطينى هـذه المفاتيح لو لم يكن واثقا بى ؟**

واندا (ما زالت واقفة مختفية دون حراك وكأن روحها انتزعت من جسدها) —

كيت (بعد أن يلقى نظرة على ما حوله) — **إن أسفى شديد لأنى أخفتك**

واندا (هامسة) — **من أنت ؟ أرجوك .**

كيت — **أنا أخو لارى**

واندا (تتنهد بفرح مفاجىء ثم تذهب إلى الأريكة وترتمى عليها)

كيت (يذهب إليها) — **لقد خبرنى**

واندا (تقبض على عنقها بيديها) — **ماذا ؟**

كيت — **شىء مخيف**

واندا — **نعم ، أوه ، نعم ! مخيف .. إنه لمخيف !**

كيت (ينظر حوله ثانية) — **فى هذه الغرفة ؟**

واندا — **فى نفس المكان الذى تقف فيه . إنى أراه الآن ، دائما أراه وهو يسقط**

كيت (يتأثر من الياس الحزين البادى فى صوتها) — **إنك تبدو صغيرة السن ، ما اسمك ؟**

واندا — **واندا**

كيت — **أتحبين لارى ؟**

واندا — **إنى على استعداد للموت من أجـله**

(لحظة صمت)

كيت — **أقد... لقد حضرت لأرى ما الذى أنت على استعداد لفعله من أجله**

واندا (بمهارة) — **يجب ألا تخدعنى ، أأنت حقا أخوه ؟**

كيت — **إنى أقسم على ذلك**

واندا (تشبك أصابعها) — لو كنت أستطيع أن أنقذه ! ألا تجلس؟

كيت (يجر كرسيا إلى مكانه ويجلس عليه) — هذا الرجل ... زوجك ، منذ متى لم تريه قبل هذه المرة ؟

واندا — منذ ثمانية عشر شهرا

كيت — وهل يعلم أحد ساكنى هـذا الحى أنك زوجته ؟

واندا — كلا، فقد جئت هنالأحيا حياةتعسة فلم يعرفنى أحد . إنى وحيدة تماما هنا .

كيت — لقد عرفوا شخصيته . . . ألم تعرفى ذلك ؟

واندا — كلا ، فانى لم أجسر على الخروج

كيت — حسن. لقدعرفوه ومن الطبيعى أنهم سيبحثون عن كل من له صلة به .

واندا — لم يظهر للناس مطلقا أننى زوجته. وإنى لا أدرى إن كنت زوجته . . . حقا ، فقـد أخذنى إلى أحدالمكاتب حيث وقعنا بامضائينا . وإنى لأعتقد أنه فعل مع كثيرات غيرى مثل ذلك فانه رجل شرير .

كيت — هل رآه أحى قبل هذه المرة ؟

واندا — لا، مطلقا! وهوالذى بدأ أخاك بالعدوان

كيت — نعم فقد رأيت أثر الكدمة . أعندك خادم ؟

واندا — كلا، إلاامرأة تأتى كل يوم فى الساعة التاسعة صباحا لمدة ساعة واحدة

كيت — هل تعرف لارى ؟

واندا — كلا ، فانه يكون دائما خارج البيت وقت حضورها

كيت — ألك أصدقاء أو معارف ؟

واندا — كلا ، فقد كنت وحيدة تماما حتى قابلت أخاك . إنى لا أرى أحداً يا سيدى

كيت (بحدة) — أصادقة أنت ؟

واندا — أوه ، نعم ، إننى أحبه ، ولم يحضر أحد إلى هذه الغرفة منذ مدة طويلة غيره

كيت — كم تبلغ هذهالمدة ؟

واندا — خمسة أشهر

كيت — إذن لم تبرحى الغرفة منذ الحادث ؟

واندا — (تهز رأسها)

كيت — وماذا كنت تفعلين ؟

واندا (ببساطة) — أبكى (تضغط بيديها على صدرها) لقد وقع فى الخطر بسببى وإنى لجد خائفة عليه

كيت (يقاطعها) انظرى إلى

واندا — (تنظر إليه)

كيت — إذا فرضنا أسوأ الفروض وعرفوا أنك زوجه أتعاهدينى على ألا تشى بلارى ؟

واندا (تنهض وتشير إلى النار) — انظر ! لقد أتلفت كل الأشياء التى أعطانى إياها حتى صورته ، ولم يبق عندي بعد ذلك شىء منه

كيت (يكون قد نهض هو أيضاً) — هذاحسن. لى سؤال آخر : هل يعرفك رجال الشرطة بسبب حيانك الخاصة ؟

واندا — (تواجهه بنظراتها وتهز رأسها)

كيت — أتعرفين أين يسكن لارى ؟

واندا — نعم

كيت — يجب ألاتذهبى إليه وألايحضر هوإليك

واندا (تحنى رأسها ثم فجأة تذهب إليه وتلتصق به) — أرجو ألا تأخذه منى إلى الأبد فسأكون

محترسة ولن أفعل شيئاً يجلب إليه الأذى ولكنني إذا لم أره بين وقت وآخر لا أستطيع الحياة . أرجو ألا تأخذه مني (تضغط يده بيديها فى يأس)

كيت — اتركى لى هذا فسأعمل كل ماأمكننى عمله .

واندا (تنظر في وجهه) — ولكنك ستكون رؤوفاً (فجأة تنحنى وتقبل يده فيجذبها منها ، فتتراجع خطوة فى خضوع وهى تنظر إليه ثم فجأة تعتدل فى وقفتها وتتسمع ثم تقول) إسمع ! يوجد شخص فى الخارج ! (تتركه سريعاً لتطفئ النور . تسمع طرقة على الباب . واندا وكيث يكونان أثناء الطريق قد التصقا فى وقفتهما بين الباب والنافذة)

واندا (هامسة) — أوه ! من يكون ؟

كيت (بصوت خافت) — لقد قلت إنه لايحضر إلى هنا أحد إلا لارى

واندا — نعم ، وقد أخذت منه مفاتيحه . أوه ! لعله لاري ! يجب أن أفتح الباب !

كيت (يتراجع الى الحائط ويلتصق بها)

واندا (فى هذه الأثناء تذهب إلى الباب فتفتحه فتحة صغيرة) — نعم ؟ أرجوك من تكون ؟

(يظهر على الحائط شعاع من ضوء بطارية مصباح كهربائى ويسمع صوت شرطى)

الشرطى (من الخارج) — لا شىء يا آنسة ، غير أن الباب الخارجى مفتوح وأنت تعرفين أنه يجب إغلاقه بعد سقوط الليل

واندا — شكراً يا سيدى

(تسمع وقع خطوات مبتعدة وصوت إغلاق الباب الخارجى . واندا تغلق الباب) شرطى !

كيت (يترك الحائط) — يا للعنة ! لقد تركت الباب الخارجى مفتوحاً (فجأة يضىء المصباح) لقد أخبرتنى أنهم لا يعرفونك

واندا (تنهد) — أظن أنهم لا يعرفوننى فانى لم أذهب إلى المدينة منذ مدة طويلة ، منذ عرفت لارى ...

كيت (ينظر إليها بامعان ثم يذهب إلى الموقد حيث يقف لحظة ناظراً إلى الارض ثم يلتفت إلى الفتاة التى تكون قد جلست على الأريكة ثانيا . يتكلم وكأنه يخاطب نفسه)

— بعد حياة مثل حياتك هذه من يصدق ... ؟ إستمعى إلى ، يجب أن ينقطع ما بينكما وأن ترحلى بعيداً . أتسمعين ؟ من المستحسن لأجله أن يترك كل منكما الآخر إلى الأبد

واندا (تئن أنة شديدة) — أوه ! يا سيدى ! أكتب على ألا أحب لأن حياتى لم تكن طيبة ؟ لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة حين أفسدنى ذلك الرجل ، لو كنت تعرف ...

كيث — إنى أفكر فى لارى ، فإن الخطر عليه يتزايد بوجوده معك ، فمن الواجب أن تقطعى هذه الصلة التى بينكما . أتدرين إلى متى ؟ إلى بضعة شهور

واندا (تقف عند طرف الأريكة وتلمس عينيها بيديها) — آه يا سيدى ! ألا ترى أنه حقيقة حياتي . بالله لا تأخذه منى

كيث (يتحرك ضجراً) — يجب أن تعرفى من يكون لارى . إنه لن يتصل بك إلى الأبد

واندا (ببساطة) — بل سيفعل يا سيدى

كيت (بقوة) — بل إنه آخر من يفعل ذلك من الرجال . ولكنه سيعرض حياته وشرف أسرته

للخطر لمجرد وهم طارىء . إنى أعرفه

واندا — كلا كلا . إنك لا تعرفه ، بل الذى يعرفه هو أنا

كيت — مهلاً مهلاً ! إنهم فى اللحظة التى يعرفون فيها صلتك بذلك الرجل وأنت مع لاري فى هذه اللحظة سيرتبط لارى بالجريمة ، ألا ترين ذلك ؟

واندا (تتصنع به) — ولكنه يحبنى ، أوه يا سيدى ! يحبنى !

كيت — لقد أحب لارى عشرات من النساء

واندا — نعم ، ولكن (ترتجف عضلات وجهها)

كيت (بخشونة) لا تبك ! إذا أعطيتك قدراً من المال تختفين من طريقه ، لأجله ؟

واندا (بكل) — سيكون اختفائى فى الماء إذن حيث لا يوجد رجال متوحشون

كيت — آه ! لارى أولا ثم أنت ثانياً ! استمعى إلىّ ، إنه من المصلحة لكليكما أن تفترقا لمدة شهور قليلة ، ستنسيان بعدها أنكما تقابلتما

واندا (تنظر إليه بوحشية) — سأذهب إذا قال لارى إنه يجب على أن أذهب ولكن لا لأعيش لا ! (ببساطة) لن أعيش يا سيدى

كيت (يفكر فيظل ساكتاً)

واندا — لن أعيش بدون لارى ، ما الذى يبقى لفتاة مثلى إذا ما أحبت وفشلت ؟ لقد انتهى كل شىء

كيت — أنا لا أريد أن تعودى إلى تلك الحياة

واندا — كلا ، بل أنت لا تهتم بما سأفعل ، ولمَ تهتم ؟ لقد أخبرتك أننى سأذهب نزولا على إرادة لارى

كيت — هذا لا يكفى ، إنك تعرفين تماماً أنه يجب أن ننتزع هذا الأمر من يديه لأنه لن يضحى بحاضره فى سبيل مستقبله . لو كنت حقيقة تحبينه كما تقولين لساعدتنى على إنقاذه

واندا (بصوت منقطع) — نعم ، أوه ، نعم ! ولكن لا تبعده عنى كثيراً ، أتوسل إليك (تسقط على الأرض وتحيط ركبتيه بذراعيها)

كيت — حسن ، حسن ! انهضى

(تسمع دقة على زجاج النافذة)

اسمعى !

(يسمع صفير خافت له نغم خاص)

واندا (تثب واقفة) — لارى ، أوه ، شكرا يا إلهى ! (تجرى ناحية الباب وتفتحه وتخرج لتقابل لارى)

كيت (يقف منتظرا وقد واجه الباب المفتوح)

لارى (يدخل ووانداوراءه مباشرة) كيت !

كيت (غاضبا) — لقد حافظت على وعدك فلم تغادر منزلك !

لارى — قد انتظرتك طول اليوم ولم أستطع البقاء أكثر من ذلك

كيت — تماما !

لارى — حسن ، ما هو الحكم ياأخى ؟ أهو نفى مدى الحياة وغرامة أربعين جنيهاً ؟

كيت — إذن فأنت تستطيع أن تقول نكاتا ، أليس كذلك ؟

لارى — يجب أن أفعل

كيت — ستسافرسفينة إلى الأرجنتين بعدغد فيجب أن تسافر عليها .

لارى (يلف ذراعه حول وندا وهي واقفة بلا حراك تنظر إليه) نحن الاثنان يا كيت ؟

كيت — لا يمكن أن تذهبا معا ولكن سأرسلها فى السفينة التالية .

لارى — أتقسم ؟

كيت — نعم، إنك سعيد الحظ... فهم يقتفون أثرا خاطئا

لارى — ماذا ؟

كيت — ألم تر هذا الخبر ؟

لارى — لم أر شيئا فانى لم أقرأ أى جريدة

كيت — قبضوا على مجرم كان قد سرق الجثة ورهن خاتما ثمبانى الشكل كانوا قد عرفوا شخصية هذا الـ (والن) عن طريقه . قد ذهبت إلى السجن ورأيته هناك متهما .

لارى — بالقتل ؟

واندا (بضعف) — لارى !

كيت — لا خطر عليه فانهم دائما يقبضون على رجل غير القاتل وان يضره أن يسجن عدة من الزمن .. على كل حال إن السجن أحسن له بكثير من النوم تحت قنطرة فى مثل هذا الجو

لارى — ما شكله يا كيت ؟

كيت — رجل صغير مصفر رث الهيئة أعرج غير حليق كأنه هُولَة . لقد كانوا مغفلين إذ اعتقدوا أن مثل هذا الرجل عنده قوة

لارى — ماذا ! (فى صوت خفيف) لماذا ؟ لقد رأيته — بعد أن تركتك فى الليلة الماضية

كيت — أنت ؟ أين ؟

لارى — عند القنطرة

كيت — أذهبت إلى هناك ؟

لارى — مقوداً يا كيت

كيت — أنت مجنون فى اعتقادى

لارى — لقد حادثته فقال لى « شكراً لك على هذه المحادثة البسيطة ، إنها لا تقدر بمال عند «سيبي» الحظ أمثالى» . إنه رجل صغير مغبر وكأنه حيوان قذر وقد جاء أحد بائعى السجف وقال : هذا حقيق ، فإن الحكومة وجدت الجثة فى نفس هذه البقعة التى تقفان فيها ولكنها لم تقبض على القاتل بعد » (يضحك بينما تلتصق به الفتاة المذعورة) رجل برىء !

كيت — قلت لك إنه ليس فى خطر ، من غير الممكن أن يكون قد خنق . ولماذا ، إنه لا يملك قوة هرة صغيرة . والآن يا لارى ، سأحجز لك مكاناً على السفينة، وهاهى ذى النقود (تخرج من جيبها رزمة من الاوراق المالية ويضعها على الاريكة) تستطيعان أن تبدءا بها حياة جديدة ، كلا كما تحت الشمس

لارى (يهمس) تحت الشمس ! « كأس من الخمر ومحبوبتك » (فجأة) كيف أستطيع يا كيت ؟ يجب أن أرى أولا ما سيحل بهذا الشيطان المسكين

كيت — آه ! أسقط ذلك من خاطرك فإن الأدلة غير كافية لإدانته

لارى — غير كافية ؟

كيت — كلا ، لقد سنحت لك الفرصة فانتهزها كرجل

لارى (ترتسم على شفتيه ابتسامة غريبة ويخاطب الفتاة) — هل تفعل يا واندا ؟

واندا — أوه ، لارى !

لارى (يلتقط النقود) — خذها يا كيت

كيت — كيف ! لقد قلت لك إنه لا يوجد محلف يدينه ، وإن وجد لا يوجد ذلك القاضى الذي يحكم بإعدامه . إن القول الذى يسرق جثة ميت

ليستحق أن يسجن ، إن ما فعله أسوأ مما فعلت

لارى — هذا لا يكفى يا كيت ، يجب أن أرى النهاية بنفسى

كيت — لا تكن مجنوناً

لارى — إنى مازلت أملك مقداراً من الشرف ولن أستطيع الذهاب قبل أن أعرف النهاية ؛ وإن ذهبت فلن أحيا فى طمأنينة . خذها يا كيت وإلا فسأجعلها طعمة لنار الوقد

كيت (يأخذ القود — بمرارة) — أرجو ألا تتغافل عن شرف اسمنا ، وإلا فلا يتفق ذلك مع مقدار الشرف الذى تملكه ؟

لارى (يرفع رأسه) — إنى جد آسف يا كيت، جد آسف أيها العجوز

كيت — إنك مدين لى ... ولشرف اسمنا ... ولذكرى أمنا المتوفاة ... يجب ألا تفعل شيئاً حتى ترى ما سيحدث

لارى — إنى عالم بذلك ولن أفعل شيئاً يا كيت حتى أستشيرك

كيت (يلتقط قبعته) — أأعتمد عليك فى ذلك؟ (يحملق بشدة فى أخيه)

لارى — تستطيع ذلك

كيت — أتقسم ؟

لارى — أقسم

كيت — تذكر ، لا تفعل شيئا ، مساء الخير

لارى — مساء الخير

(يخرج كيت ويجلس على الاريكة ناظراً إلى النار بينما تذهب واندا إليه بهدوء وتقف ذراعها حوله)

رجل بريء !

واندا — أوه ، لاري ! ولكنك أنت أيضاً بريء ، ما احتياجنا إلى قتل ذلك الرجل ؟ لا شيء ! أوه! قبلنى ! (يلتفت إليها فتقبل شفتيه) لقد عانيت كثيراً ... لأنى لم أرك ، لا تتركنى ثانية ، ابق معى ، ألا يكون جميلا بقاؤنا معاً ؟ أوه ! مسكين أنت يا لارى فإنك متعب كما يظهر عليك . ابق معى فإن هذه الوحدة تخيفنى ، كم أخاف أن أن يأخذوك منى

لارى — يا طفلتى المسكينة !

واندا — لا ، لا ! لا تظهر بهذا المظهر !

لارى — إنك ترتعدين

واندا — سأشعل النار ، حبنى يا لارى ! فإنى فى حاجة إلى النسيان

لارى — لقد سجنوا ذلك الرجل التعس ، أتعس مخلوق على الأرض بسببى ! سجنوا حيواناً صغيراً متوحشاً حيث يروح ويغدو في قفص ، يروح ويغدو ... ألا ترينه ؟ إنه يبحث عن مكان يعترضه ليفتح لنفسه طريقاً إلى الخارج ... ذلك الفأر الأغبر (يقف ويأخذ فى المشى ذهاباً وجيئة)

واندا — لا لا ! إنى لا أحتمل هذا ! أقصر عن ذلك فإنك تخيفنى

لارى(يرجع إليها ويأخذها بين ذراعيه)— رويدك رويدك ! (يقبل عينيها المغلقتين)

واندا (بدون حراك) — لو كنا ننام قليلا ... ألا تستحسن ذلك ؟

لارى — النوم ؟

واندا(ترغم نفسها) — عدنى أن تبقى معى... تبقى هنا دائما ، لارى ، سأطبخ لك وسأجعل حياتك مريحة. سيجدونه بريئا وعندئذ .. أوه ، لارى! .. فى الشمس ... هناك بعيدا ... بعيدا عن هذه البلاد

المخيفة ... ما أجل هذا ! (تحاول أن تدعه ينظر إليها) لارى !

لارى (يحاول أن يبعدها عنه) — إلى حافة العالم ثم ... نتخطاها !

واندا — لالا ! لالا ! إنك لا تريد لى الموت يالارى ، أليس كذلك ؟ سأموت إن تركتنى ... دعنا نعيش سعداء ... حبنى

لارى (ضاحكا) — آه ! فلنعش سعداء ولننس هذا الرجل . من يعنينا ؟ ملايين من الناس يتألمون لغير سبب معقول ، فلنكن أقوياء ككيث . كلا ! لن أتركك ياواندا . دعينا ننسى كل شىء إلا أنفسنا (فجأة) هناك يذهب ... يروح ويغدو !

واندا (تئن) — لالا ! أنظر ! سأصلى للمذراء علها ترحمنا ! (تسقط على ركبتيها وتشبك يديها وتصلى محركة شفتيها)

لارى (يقف بلا حراك وقد عقد يديه على صدره وظهر على وجهه الشوق والحنين ، والهزء والسخرية ، والحب ، واليأس ... يهمس) صلى لأجلنا ! مرحى ! صلى كثيرا !

واندا (فجأة تمد يديها وترفع رأسها وقد طبعت على وجهها نظرة ذهول وشغف)

لارى — ماذا ؟

واندا — إنها تبتسم ! سنسعد سريعا .

لارى (ينحنى عليها) — يا طفلتى المسكينة ! عندما نموت ياواندا ... دعينا نموت سوياً كى نظل في دفء ونحن فى عالم الظلام

واندا (ترفع يديها إلى وجهه) — نعم ، أوه ، نعم ! إذا مت فلن أستطيع ... لن أستطيع البقاء فى هذه الدنيا !

(ستار)

المنظر الثالث

(بعد حوادث المنظر الثانى بشهرين)

حجرة واندا — يكاد ضوء الشمس أن يغيب فى أحد أيام يناير — المائدة معدة للعشاء وقد وضعت عليها قناني الخمر)

(تظهر واندا واقفة بجانب النافذة تنظر إلى أشجار البدان القريب الشتوية)

(يسمع صوت بائع صحف يقترب شيئا فشيئا)

الصوت — جرائد ! قتيل شارع جلوف ! المحاكمة والحكم (يكرر) الحكم ! جرائد !

واندا — (تفتح النافذة وكأنها تريد أن تناديه ثم تتراجع وتغلق النافذة وتجرى ناحية الباب . تفتحه ولكنها ترتد إلى داخل الحجرة لأن كيث كان واقفا هناك)

كيث — (يدخل) أين لاري ؟

واندا — ذهب ليرى المحاكمة ولم أستطع منعه. المحاكمة أوه ! ماذا حدث هناك يا سيدى ؟

كيث (بوحشية) — مجرم ! حكم عليه بالاعدام ! مجانين ! بلهاء !

واندا — الاعدام ! (يظهر عليها كأنها قاربت الاغماء)

كيث — أيتها الفتاة ! أيتها الفتاة ! إن كل شىء يتوقف عليك . ولارى ، أما يزال عائشاً هنا ؟

واندا — نعم

كيث — يجب أن أنتظره

واندا — ألا تتفضل بالجلوس ؟

كيث (يهز رأسه) — أأنت على استعداد للسفر إلى الخارج فى أى وقت ؟

واندا — نعم نعم ، إنى دائماً على استعداد

كيث — وهو ؟

واندا — نعم ولكن الآن ! ماذا يفعل ؟ ذلك الرجل المسكين !

كيت — هى مقابر. غول !

واندا — ربما كان جائعاً . كنت جائعة يوماً . إنك فى حالة الجوع تفعل أشياء ما كنت لتفعلها وأنت فى حالتك الطبيعية . لقد فكر فيه لاري كثيراً وفكر فى حالته وهو فى السجن، أوه ! ماذا نفعل الآن ؟

كيت — اسمعى ! ساعديني . لا تدعى لارى يبتعد عن نظرك . يجب أن أرى كيفية سير الأمور. لا يمكن أن يشتقوا ذلك البائس (يقبض على يديها) والآن يجب أن نمنع لارى من أن يسلم نفسه . إنه مجنون ، أتفهمين ؟

واندا — نعم ولكن لماذا لم يأت بعد ؟ أوه ! لو كان قد سلم نفسه وانتهى الأمر !

كيت (يترك يدها) — يا إلهى ! لو أتى رجال الشرطة ورأونى هنا (يتجه إلى الباب) كلا ، لايمكن أن يفعل ذلك بدون أن يرانى أولا . من المؤكد أن يحضر . راقبيه كأنه مسجون، لاتدعيه يخرج بدونك

واندا (تشبك ذراعيها على صدرها) — سأحاول يا سيدى

كيت — أنصتى

(يسمع صوت مفتاح يدار في القفل) إنه هو

لارى (يدخل وقدحمل باقة من الزنبق القرنفلى والورد الأبيض — لا يبدو على وجهه شئ)

كيت (ينقل بصره بين لارى والفتاة الواقفة دون حراك)

لارى — كيت ! إذن فقد رأيت ؟

كيت — لا يمكن أن تستمر الحالة هكذا وسأقف هذا الأمر بكل الطرق ولكن يجب أن تفسح لى الوقت يالارى

لارى (بهدوء) — أما تزال تعنى بشرفك يا كيت ؟

كيت (عابسا) — فلتكن آراؤك فى عقلى وتفكيرى كما تريد

واندا (بنعومة) — لارى

لارى (يحيطها بذراعه) — آسف أيها العجوز

كيت — يستطيع الرجل الخلاص ، وسينجو، فقط عدني ألا تسلم نفسك أوحتى تخرج من المنزل ثانية .

لارى — أعدك

كيت (يجيل بصره فيهما) — أتقسم بذكرى والدتنا؟

لارى (مبتسما) — أقسم

كيت — لقد أقسمتما لى ... كلا كما .

وهأنذا أذهب توآ لأرى ماذا يمكن فعله

لارى (بنعومة) — حظ سعيد ياأخى .

(يخرج كيت)

واندا (تضع يديها على صدر لارى) — مامعنى كل هذا؟

لارى — العشاء ياطفلتى ...لم أذق طعاما طول يومى . ضعى هذه الزنبقات فى الماء

واندا (تطيعه فتأخذ الزنبقات وتضعها فى الماء)

لارى (يضع كمية من الخمر فى إناء زجاجى عميق ملون ويشربها) لقد تمتعنا زمنا ياواندا ، فان أحسن زمن مر على طول حياتى هو هذان الشهران وليس علينا الآن إلا أن ندفع الثمن

واندا (تمسك بيأس) — أوه ، لارى ! لارى!

لارى (يبعدها عنه وهو ممسك بها ليلقى عليها نظرة فاحصة) — انزعى عنك كل هذه الأشياء والبسى ملابس العرس

واندا — عدني أن تصحبني إلى أيّ مكان تذهب إليه . عدني ! أتظن يا لاري أني لم ألاحظ شيئاً كل هذه الأسابيع ، كلا يالارى لقد لاحظت وعرفت كل شيء حتى ما لم تبح به وأبقيته في قلبك إنك لا تستطيع أن تخفي عني فاني قد عرفت ، عرفت ! أوه ، لو كنا نذهب إلى هناك لنعيش تحت الشمس ، أوه يا لاري ! ألا نستطيع ؟ (تحاول أن تلتقي عيناها بعينيه — ثم ترتعش) حسن ! إذا كان لابد من دنيا الظلام فاني لا يهمني إلا أن أذهب وأنا بين ذراعيك . لن نكون في السجن معا . إني على استعداد للذهاب ولكن أحبني أولا . لا تدعني أبكي قبل الذهاب ، أوه يالارى ! هل سأتألم كثيرا ؟

لارى (بصوت مختنق) — لا ألم ياجميلتي .

واندا (تنتهد) — يرحمنا الله

لارى — لو كنت رأيته كما رأيته طول اليوم وهو يتعذب ، واندا ، يجب أن نرحل عن هذه الدنيا (يبدأ تأثير الخمر في الظهور) سنكون أحراراً في دنيا الظلام ، أحرارا من وحشيتهم الملعونة . إني أكره هذه الحياة ... أمقتها ! أكره عالمها المهجور المتوحش ، أكره كبرياءها واعتزالها ووحدتها ! حياة كيت ... وجميع الأنقياء الأقوياء الناجحين . نحن لانستطيع العيش في هذه الدنيا ، أنت وأنا .. فانا لم نخلق لها ... نحن غير أقوياء ، نحن ضعيفا الارادة ... إن الموت أحسن لنا من أي شيء آخر . لا تخش شيئايا كيت فلن أترك المنزل ! (يصب بعض الخمر في كأسين) اشربي

واندا (تعطيه وتشرب كأسها)

لارى (يشرب هو أيضا) — والآن اذهبي وتجملي .

واندا (تلف يديها حوله) أوه ، لارى !

لارى (يلمس وجهها وشعرها) — سيشنق حتى تفارق الروح جسده ... قصاصا لما فعلته أنا .

واندا (تنظر في وجهه نظرة طويلة ثم تتركه وتذهب خارجة خلال الستائر الغربية من الموقد)

لارى (يبحث في جيبه ثم يخرج الصندوق الصغير فيفتحه ويشير إلى الأقراص البيضاء) اثنان لكل منا ... بعد الأكل (يضحك ويرجع الصندوق إلى جيبه) أوه ! يافتاتي !

(صوت موسيقى خفيفة تبعث السرور إلى النفس ، تعزف على بيانو بعيد ، يدمدم ثم يختفي في النار) لهيب ... لهيب يتلألأ ... ثم يصير هشيما . « لا شيء بعد ذلك ، لاشيء ، فقد مات القمر ؛ وذهب الناس جميعا فيه » (يجلس على الأريكة وقد وضع قطعة من الورق على ركبتيه فيضيف إلى ما هو مكتوب بها بعض كلمات أخرى)

واندا (ترجع خلال الستائر وقد لبست ثوبا حريريا . تلاحظ لارى أثناء دخولها)

لارى (ينظر إليها) — كل شيء هنا ... فقد اعترفت (يقرأ) : « رجاؤنا أن ندخن سوياً . لورانس دارانت ٢٨ يناير ، الساعة السادسة مساء تقريباً » . سيجدوننا في الصباح ، تعالى نأكل يا حبيبتي

(تتقدم الفتاة ببطء . يقوم ويلف ذراعه حولها فتلف ذراعها حوله . يبتسم كل منهما وهو ينظر إلى الآخر . يذهبان إلى المائدة ويجلسان . تنزل الستار لمدة ثوان قليلة لتدل على مرور ثلاث ساعات ، وعند ما ترفع يكون الحبيبان ناتمين على الأريكة وقد احتضن كل منهما الآخر وانتشرت حولها الزينقات ويكون ذراع الفتاة العارى ملتفا حول عنق لارى وعيناها مغلقتان ، أما عيناه فتكونان مفتوحتين دون إبصار . الحجرة مظلمة إلا من الضوء الذى تبعثه نار الموقد . طرق على الباب وصوت مفتاح يدار في قفل الباب)

كيت (يدخل ثم يقف لحظة لا يدري ماذا يفعل فى هذا الضوء الخافت ثم ينادى بحدة) — **لارى**

(يضيء النور فلما يرى من على الاريكة يتراجع لحظة ثم ينظر إلى المائدة والقناني الخالية فيذهب إلى الاريكة وهو يتمتم) — **نامان ! سكرانان ! آه !**

(فجاة ينحنى ويلمس لارى ثم يقفز إلى الوراء) :

— **ماذا ؟ !**

(ينحنى ثانية فيهز رأسه وهو ينادى) :

— **لارى ! لارى !**

(ثم دون أن يتحرك ينظر إلى عينى أخيه المفتوحتين اللتين لا تبصرانه وفجأة يبلل أصبعه ويمرره على شفتى الفتاة ثم على شفتى لارى) — **لارى !**

(ينحنى ليتسمع دقات قلبيهما فيرى الصندوق بينهما فيمسكه بيده) — **يا إلهى !**

(يقوم متثاقلا ثم يغلق عينى أخيه وبينما هو يفعل ذلك يقع نظره على ورقة ملصقة بالاريكة فينتزعها ويقرأ) :

« أنا ، لورانس دارنت ، على وشك الموت منتحراً ، أعترف أنى ...»

(يتم قراءة الخطاب وهو صامت وقد تملكه الرعب فلما ينتهى تسقط الورقة من يده ويتراجع عن الاريكة حتى يصل إلى كرسى موضوع أمام مائدة العشاء فيجلس عليه وهو ذاهل . فجأة يتمتم) :

— **يا إلهى ! إن فيها الدمار !**

(يمسكها وكأنه يريد أن يمزقها ثم يكف عن ذلك وينظر إلى الاثنين فيغطى وجهه بيده ويترك الورقة تسقط على الارض ويندفع نحو الباب ، ولكنه يقف عند الباب ويرجع وكأن هذه الورقة مغناطيس يجذبه إليه فيأخذ الورقة ويضعها فى جيبه

سوت خطوات شرطى خارج الحجرة بطيئة منتظمة. يتجعد وجه كيت ويرتعش ويتسمع حتى يتلاشى الصوت فينتزع الورقة من جيبه ويذهب إلى الموقد) :

— **كل ... لا ، فليشنق !**

يلقى الورقة فى النار ويدوسها بقدمه ويأخذ فى ملاحظتها وهى تتلوى وتسود . وفجأة يقبض على رأسه ويدور لينظر إلى الجسدين على الاريكة وهو يلهث كرجل مختل الشعور ثم يذهب إلى رأس الأريكة ويندفع نحو النافذة فيرفع الستائر ويفتح النافذة طلبا للهواء . تظهر الشجرة فى الخارج وكأنها هيكل عظمى لساحرة عجوز وكأن شخصا هناك يشنق فيتراجع كيت)

ما هذا ؟ ماذا ... !

(يغلق النافذة ويرخى الستائر)

مجنون ! لا شئ !

(يضغط قبضتى يديه كل يد بالأخرى حتى يستعيد ثباته ويهدئ نفسه بكل ما يستطيع من قوة . ثم يذهب فى بطء إلى الباب حيث يقف لحظة وكأنه تمثال بوجه جامد كأنه قد من حجر . وفى هدوء يطفئ النور ويفتح الباب ويخرج. الجسدان لا يزالان كما هما راقدين أمام النار التى ما زالت تسرى فى بقية الخطاب المسود)

(ستار — انتهت)

سامى الناقص

المجموعة الاولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين